قصص من جوته

الأقصوصة والحكاية



جمع وترجمة عبد الغفار مكاوي

قصص من جوته

الأقصوصة والحكاية

جمع وترجمة
عبد الغفار مكاوي



قصص من جوته

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٧٠ ٦

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الألمانية في تواريخ متعددة.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٦٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

الأقصوصة

كان ضباب الخريف الملبَّد في مطلع النهار لا يزال يُدثر القاعات الفسيحة في فناء قصر الأمير، عندما بدأت العين تُميز من خلال القناع الذي يشفُّ رويدًا رويدًا حملة الصيد كلها وهي تموج بالخيول والمُشاة في حركةٍ مختلطة. كان من السهل على المرء أن يتعرَّف على المَشاغل العاجلة للقريبين؛ فهذا يمدُّ الركاب، وهذا يقصره، وواحد يُناول صاحبه البنادق والمخلات، وآخر يُصلح من وضع حقائب الصيد، بينما الكلاب تنبح فارغةَ الصبر في قيودها، وتُهدد المُتباطئين بجرِّهم معها، كذلك لم يخْلُ الأمر هنا أو هناك من جوادٍ ينمُّ مسلكه عن الشجاعة، تدفعه طبيعته النارية أو يُنبهه مِهماز الفارس الذي لم يستطع في هذا الضوء المُعتم أن يُخفي قدرًا من صلفه واعتداده بنفسه. ومع ذلك فقد كان الجميع في انتظار الأمير الذي ذهب يُودع زوجته فتباطأ عليهم كثيرًا.

كان قد عُقِد قِرانهما منذ عهدٍ غير بعيد، فأحسَّا بالسعادة التي تُظلل وجدانَين مُتجانسين في طبيعتهما، وكان كلاهما ذا طبع فعَّال مُفعَم بالحياة يُشارك عن طِيب خاطر في ميول صاحبه ومطامحه. ولقد كُتِب لوالد الأمير أن يحيا تلك اللحظة وينتفع بها، حين أصبح من الأمور الواضحة أن على رجال الدولة جميعًا — بما يُوافق طبيعة كل واحد منهم — أن يقضوا أيامهم في العمل والإبداع، وأن يلتفتوا إلى ما يعود عليهم بالنفع قبل أن ينصرفوا إلى اللذة والاستمتاع.

كشفت هذه الأيام عن مدى نجاح هذا الرأي، حيث وافق ذلك انعقاد السوق الكبير الذي يستطيع الإنسان بغير مبالغة أن يُطلق عليه اسم المهرجان. ولقد صحب الأمير بالأمس زوجته مُتجولًا على صهوة جوادَيهما بين أكوام البضائع المُكدَّسة، وأراها كيف تتفاوت الطبيعة في هذه البقعة بالذات بين الجبل والسهل فيلتقيان التقاءً يسرُّ العين، كما عرف كيف يجذب انتباهها إلى مظاهر الحياة النشيطة في هذه المنطقة من البلاد.

وإذا كان الأمير قد انصرف في هذه الأيام الأخيرة انصرافًا تامًّا إلى تدبير هذه الأمور المُلحة مع رجال حكومته، وراح يعمل بوجهٍ خاص مع وزير ماليَّته عملًا لا ينقطع، فلم يتنازل ناظر الصيد مع ذلك عن حقه؛ إذ كان من رأيه أن من المستحيل على الإنسان أن يُقاوم الإغراء الذي يُحفزه في هذه الأيام المُواتية من فصل الخريف إلى أن يقوم برحلةِ صيدٍ سبق تأجيلها من قبل، وأن يُتيح بذلك لنفسه ولكثيرٍ من الأغراب الوافدين عيدًا فريدًا نادرًا.

تخلَّفت الأميرة عن المشاركة في رحلة الصيد؛ فقد كان في النية أن يتوغَّل الأمير وصحبه في الجبل؛ لكي يُقلقوا السكان المُسالمين في تلك الغابات بحملتهم التي لم تخطر لهم على بال.

لم ينسَ الأمير وهو يُودع زوجته أن يقترح عليها نزهةً تقوم بها في صحبة عمه «فريدريش»: «وكذلك أترك لك (كما قال لها) «هونوريو» سائس الإسطبل، ومعه حاجب القصر وخادم البلاط، الذي سيهتمُّ بكل شيء.» وبعد أن ختم هذه الكلمات أخذ يُلقي، وهو يهبط درجات السُّلم، بالتعليمات الضرورية إلى شابٍّ حسن البنيان، ثم سرعان ما اختفى مع ضيوفه وحاشيته.

اتَّجهت الأميرة، بعد أن لوَّحت بمنديلها لزوجها وهو يهبط إلى فناء القصر، إلى الغرفة الخلفية التي كانت تُطلُّ على الجبل، وتسمح للعين بإلقاء نظرة طليقة عليه، يزيد من حُسنها أن القصر نفسه كان يقع على مُرتفَع من النهر، ويُتيح للمتأمل رؤًى منوَّعة حافلة بالمعاني. وجدت المِنظار الرائع في موضعه الذي تركوه فيه بالأمس عندما كانوا يتجاذبون الحديث، ويتأملون الأطلال العالية الباقية من البرج العتيق من وراء الدغل والجبل وقِمم الأشجار في الغابة، يكسوها ضوء المساء بلونٍ عجيب، وتخلع عليها كتلٌ عظيمة من الأنوار والظلال أوضحَ صورة لأثرٍ مَهيب من آثار الأزمنة السالفة. كذلك أوضح لها صباح اليوم من خلال الزجاج المقرَّب على نحوٍ مُلفِت للانتباه تلك الأنواعَ المختلفة من الأشجار يكسوها الخريف بألوانه، وترتفع عاليةً من بين الأسوار لا يعوقها شيء، ولا ينالها بالتلف شيء. بيْدَ أن السيدة الجميلة أمالت المِنظار إلى مستوًى أعمق، ووجَّهته ناحية أرض مُسطحة خرِبة تكثر فيها الأحجار، كان لا بد لموكب الصيد أن يمرَّ بها في طريقه. أخذت تنتظر اللحظة صابرة، ولم يخُنها إحساسها؛ فإن وضوح الآلة وقدرتها على التكبير قد مكَّنت عينَيها الساطعتين من رؤية الأمير وناظر الإسطبل رؤيةً جلية، حتى إنها لم تملك نفسها من التلويح مرةً أخرى بمنديلها، حين خُيِّل إليها كأن الركب يتوقف لحظة عن المسير، وأن الأمير يلتفت وراءه، وإن كان ذلك أقرب إلى التخمين منه إلى الإدراك الواضح.

دلف عم الأمير، واسمه «فريدريش»، من الباب بعد أن أعلن الحاجب مَقدمه، ومعه رسَّامه يحمل حقيبةً كبيرة تحت إبطه. قال الرجل العجوز المَتين البنيان: «ها نحن نعرض عليك مَناظر قلعة العائلة مرسومةً من جوانب مختلفة؛ لتُبين كيف استطاع هذا البِناء الهائل الصامد الواقي من أقدم الأزمنة أن يتصدى للأعوام وتقلبات أجوائها، وكيف كان من المحتوم أن يتصدع السور المُحيط به هنا وهناك، وينهار في هذا الموضع أو ذاك، فيصبح أطلالًا بالية. لقد قمنا بما يجعل هذه الخرِبة المُوحِشة الأطلال ميسورةً لكل قدم تريد أن ترتادها؛ إذ لم تكن في حاجة إلى أكثر من ذلك لكي تتملك الدهشة كل سائح، وتستولي البهجة على كل زائر.»

استطرد الأمير يشرح اللوحات المرسومة واحدة بعد الأخرى: «هنا، حيث يصعد الإنسان مع النفق عبر الأسوار الخارجية المتحلقة فيبلغ القلعة، تُواجهنا صخرة من أشد صخور الجبل كله صلابة، يرتفع فوقها برجٌ مُحاط بالأسوار، ومع ذلك فما من أحد يستطيع أن يقول أين تتوقف الطبيعة، وأين يبدأ الفن والصنعة من يد الإنسان.

ثم تُبصر العين من الناحية الجانبية حوائط مُلتصقة به، وساحة تمتدُّ هابطةً على هيئة سلاملك. على أنني لا أُحسن التعبير تمامًا، فهي في حقيقة الأمر غابة تلك التي تلتفُّ حول القمة السحيقة القِدم. منذ مائة وخمسين عامًا لم تُسمع هنا دقة فأس، وفي كل مكان تسمق الجذوع الهائلة عاليةً في السماء، وحيثما اقتربت من الجدران واجَهتك أشجار الجميز الأملس، والبلوط الخشن، والصنوبر النحيل بسيقانها وجذورها. علينا أن نلتفَّ حول هذه الأشجار، ونتلمس دربنا على هدًى وبصيرة. انظري كيف عبَّر فنَّاننا البارع عن هذه الجوانب المُميزة على الورق فأحسن التعبير، وكيف بيَّن الأنواع المختلفة من السيقان والجذور وهي تتشابك بين الجدران، والأغصان القوية وهي تنساب بين الثغرات! إنها برِّيةٌ مُوحِشة لا نظير لها، محلٌّ شاءت الصدفة أن يكون فريدًا في نوعه، يتضح فيه كيف تشتبك أقدم آثار القوة الإنسانية التي عفا عليها الزمان، مع الطبيعة التي تُواصل حياتها وخلقها منذ الأزل في صراعٍ جادٍّ كل الجد.»

ثم استطرد قائلًا وهو يُقدم لها لوحةً أخرى: «ماذا تقولين الآن عن فناء القصر الذي لم يرتَدْه أحد منذ أن انهارت بوابة البرج، ولم تطأه قَدم من أعوام لا تعيها ذاكرة إنسان؟ لقد حاولنا أن نبلغه من الناحية الجانبية؛ خرقنا الجدران، وفجَّرنا الأقبية، وعبَّدنا بذلك طريقًا مُريحًا ولكنه سوي. لم نجد حاجة لإزاحة شيء من داخل الفناء عن مكانه، فهنا قمة صخرية مُسطحة سوَّتها الطبيعة، ولكن بعض الأشجار العظيمة قد وجدت الحظ

والفرصة المُواتية لتضرب بجذورها هنا وهناك. لقد نمَت في وداعة، ولكن بشكلٍ ملحوظ، وهي الآن تمدُّ أغصانها حتى تصل إلى داخل الأروقة، التي كان الفُرسان فيما مضى من الزمان يقطعونها جيئة وذهابًا، بل إنها لتنفُذ من خلال الأبواب والنوافذ حتى تبلغ الردهات ذات الأسقف المُقوسة، التي لم نشأ أن نطردها منها، فقد أصبحت السيدة المسيطرة عليها، ومن حقِّها أن تبقى كذلك. لقد اكتشفنا، ونحن نكنس الأرض من أكوام ورق الشجر، أعجبَ مكانٍ مُستوقَد لا تقع العين على شبيه له في العالم كله.

على أن الجدير بالملاحظة بعد هذا كله، أن يرى المرء في نفس الموضع كيف ضرب جذر الجميز في الدرجات الصاعدة إلى البرج الرئيسي، وكيف ارتفع على هيئة شجرة شامخة عظيمة، حتى ليشقُّ على الإنسان أن ينفُذ منها ليعتلي شرفة البرج، ويُمتع بصره بمشهدٍ غير محدود.

لنشكر إذن الفنان البارع الذي جعلنا نقتنع بكل ما أبدعته يده من صورٍ مختلفة إبداعًا خليقًا بالحمد، حتى ليُخيَّل إلينا ونحن نُشاهدها كأننا ماثلون فيها بأشخاصنا. لقد كرَّس لذلك أجمل ساعات الأيام والفصول، وقضى أسابيع طويلة في الطواف حول هذه الموضوعات. جهَّزنا له وللحارس الذي عهِدنا إليه بمرافقته مَسكنًا صغيرًا مُريحًا في هذا الركن. إنك لا تستطيعين يا عزيزتي أن تتصوري مدى ما بلغته المَشاهد التي أعدَّها لنفسه هناك من جمال؛ لكي يُطلُّ منها على الطبيعة والفناء والأسوار. إنه بعد أن خطَّط كل شيء تخطيطًا صافيًا مُميزًا، سينصرف هنا إلى تنفيذها على راحته. نريد أن نُزين بهْوَ حديقتنا بهذه الصور، ولا نسمح لأحد بأن يُمتع عينَيه بحوض زهورنا وعرشنا وممرَّاتنا الظليلة المُمهدة، حتى نتأكد من رغبته في أن يعتلي هذا المُرتفَع الماثل هناك، ويتملى من رؤية القديم والجديد والجامد والصامد رؤيةً صادقة، ويتفكر في كل ما لا تنال منه يد الزمان، وما ينبض بنضارة الحياة، فيما يتثنى وينساب، وفيما لا سبيل إلى مقاومة سحره.»

دخل «هونوريو» وأعلن أن الجياد مُعَدة للركوب، فقالت الأميرة، مُلتفتة إلى عمها: «دَعنا ننطلق بخيولنا إلى أعلى؛ حتى تُريني في الواقع ما بيَّنته لي في الصورة. منذ أن حضرت إلى هذا المكان وأنا أسمع بهذا المشروع، وها أنا أُحس بالشوق الشديد يدفعني إلى أن أرى بعيني ما بدا لي في الرواية مستحيلًا، وما يظل في المحاكاة أمرًا لا يحتمل التصديق.» رد الأمير قائلًا: «لم يئِنِ الأوان بعدُ يا حبيبتي. إن ما شاهدتِه هنا هو ما يمكن أن يكون وما سيكون، فلم تزَل هناك صعوبات لم يتم تذليلها. إن الفن ينبغي عليه أن يبلغ الكمال إذا أراد ألا يخجل من الطبيعة.»

– «لننطلق على الأقل في الطريق الصاعد، حتى ولو لم نصِل إلا إلى السفح. إنني أُحس اليوم بشوقٍ شديد إلى التوغل في العالم والتطلع إلى ما فيه.»

أجابها الأمير قائلًا: «ليكُن لك كل ما تشائين.» واستطردت السيدة قائلة: «ولكن دعنا نقُم بجولة خلال المدينة، فنعبُر السوق الكبير الذي احتشد بعدد لا حصر له من الدكاكين التي بدَت على هيئة مدينة صغيرة أو مُخيَّم عسكري. لَكأني بحاجات الأُسر جميعها في هذه البلاد وبمشاغلها قد انطلقت من مكانها، وتجمَّعت في هذا المركز، وبرَزت في ضوء النهار؛ ذلك أن المُلاحظ المُدقق يرى هنا كل ما يُنجزه الإنسان وكل ما يحتاج إليه، وقد يتوهَّم المرء لحظةً أن المال لم تعُد له ضرورة، وأن كل تجارة يمكن أن تتمَّ هنا عن طريق التبادل، وكذلك الأمر في الحقيقة. منذ أن أتاح لي الأمير بالأمس أن أُلقي نظرةً شاملة على هذا كله، وأنا أجد لذة في أن أُفكر كيف يستطيع سكان الجبال وسكان الريف — وهما يتلاقيان على حدود مشتركة — أن يُعبروا بمثل هذا الوضوح عما يحتاجون إليه وما يرغبون فيه. فكما يعرف ساكن المناطق المرتفعة كيف يُشكل خشب غاباته في مئات من الصور والأشكال، ويصنع من الحديد أنواعًا متعددة تُوافق كل طلب، فكذلك يُقابله ساكن الريف بألوانٍ مختلفة من البضائع، يكاد الإنسان يعجز عن تحديد المادة التي صُنعت منها، كما يعجز في أغلب الأحيان عن تبيُّن الهدف من ورائها.»

رد الأمير قائلًا: «أعلم أن ابن أخي يُوجه لهذه المسألة أوفى نصيب من عنايته؛ إذ إن من أهم الأمور في هذا الفصل من فصول السنة أن يأخذ الإنسان أكثر مما يُعطي، وإن تحقيق ذلك لهُو في نهاية الأمر غاية تدبير سياسة الدولة كلها، كما هو لب التدبير المنزلي في أصغر البيوت وأقلها شأنًا، لكنني ألتمس منك المعذرة يا عزيزتي؛ فإنني لا أتجوَّل أبدًا عن طِيب خاطر على صهوة جوادي في الأسواق والمهرجانات، ففي كل خطوة أجد من يعترض طريقي ويُوقِف سيري، وعندئذٍ يشبُّ لهب الكارثة الفظيعة مرةً أخرى في مُخيِّلتي؛ تلك الكارثة التي اشتعلت أمام عيني عندما رأيت النار تأكل مثل هذه الأكداس المُكدَّسة من البضائع. إنني لم أكد …»

قاطَعته الأميرة بقولها: «لا تدعنا نُضيع على أنفسنا هذه الساعات الجميلة؛ فقد سبق لهذا الشيخ الجليل أن أفزعها بالوصف المُفصَّل لتلك الكارثة؛ إذ كان في رحلةٍ طويلة، وقد لجأ إلى فراشه بعد أن أضناه التعب، في أفضل فندق في السوق الذي كان يضجُّ باحتفالات المهرجان الرئيسي، عندما هبَّ من نومه فزعًا على أصوات الصراخ وألسنة اللهب التي كانت تزحف على غرفته.»

أسرعت الأميرة تعتلي صهوة جوادها الأثير، وقادت صاحبها نحو الباب الأمامي مُنحدرة مع الطريق الهابط من الجبل، بدلًا من أن تسير به نحو الباب الخلفي على الطريق الصاعد إليه، والأمير على أثرها يتنازعه القبول والعصيان؛ إذ من ذا الذي لا يقبل عن طِيب خاطر أن يُرافقها، وأين من كان يتردد عن متابعتها راضيًا سعيدًا؟ وكذلك تأخَّر «هونوريو» بمحض اختياره عن اللحاق بموكب الصيد الذي كان دائمًا ينتظر موعده بفارغ الصبر؛ لكي يكون رهن إشارتها هي وحدها.

هكذا راحا يشقَّان طريقهما في السوق خطوةً خطوة كما كان مُنتظرًا لهما، ولكن الجميلة الجديرة بالحب كانت تُضفي على كل وقفة يقفانها روحًا من المرح بملاحظة من ملاحظاتها الذكية.

قالت: «إنني أستعيد الدرس الذي تلقيَّته بالأمس؛ إذ إن الضرورة تشاء على ما يبدو أن نمتحن صبرنا.» والواقع أن جموع الناس كانت تتدفق على الفارسَين تدفقًا جعلهما يُتابعان طريقهما في بطءٍ شديد. تطلَّع الشعب مُبتهجًا إلى السيدة الشابَّة، وتجلَّى على الوجوه العديدة المُبتسمة ارتياحٌ غامر، وهي ترى كيف أن السيدة الأولى في البلاد هي في نفس الوقت أجمل السيدات وأرقُّهنَّ.

كانت الجماهير المُحتشدة في السوق مزيجًا من سكان الجبال الذين يرعَون مساكنهم الهادئة بين الصخور وأشجار الصنوبر، ومن سكان السهول القادمين من التلال والمراعي والمروج، وأرباب الحِرف والصنائع من المدن الصغيرة وغيرهم ممَّن تجمَّعوا هناك. ألقت الأميرة نظرةً هادئة على الجموع المُتزاحمة قبل أن تُعبر لصاحبها عما لاحظته قائلة: «إن هؤلاء الناس جميعًا، على اختلاف مواطنهم، قد لبِسوا من الثياب أكثر من حاجتهم، ومن الأقمشة وأشرطة الزينة ما يفيض عليهم، وكأن النساء لا يَقنعْنَ بالتباهي، والرجال لا يشبعون من اللهو والفراغ.»

رد عليها الأمير قائلًا: «فلندَع لهم التصرف في ذلك كما يَحْلو لهم، فحيثما وجد الإنسان ما يفيض على حاجته الضرورية، كان أكثر ما يُرضيه ويُدخل السرور على قلبه أن يتزيَّن به ويَزْدان.» هزَّت السيدة الجميلة رأسها موافقةً على هذا الكلام.

وهكذا بلغا في مَسيرهما ساحةً خالية كانت تؤدي إلى مدخل المدينة، وتبيَّنا بوضوحٍ مبنًى عظيمًا نُصِب من القوائم والألواح، يقع في نهاية عدد كبير من الدكاكين ومحالِّ التجارة الصغيرة، ما كادا يلمحانه حتى سمعا صراخًا هائلًا يُمزق الآذان.

كان يبدو أن ساعة إطعام الحيوانات المُتوحشة التي تُعرَض هناك قد دنَت. أخذ الأسد يزأر بصوته الذي تعرفه الغابات والصحاري زئيرًا عاليًا، وراحت الجياد تنتفض، ولم يكن

في وُسع المرء أن يمنع نفسه من أن يُلاحظ كيف يُعلن ملك القفار عن نفسه على هذا النحو المُخيف وسط العالم المُتحضر المُسالم بطبيعته وأفعاله. لم يكن في وُسعهما وهما يقتربان من صالة العرض أن يُغفلا اللوحاتِ الملوَّنة الهائلة التي تُصور بألوانٍ صارخة ورسومٍ قوية التأثير تلك الحيوانات الغريبة، التي لا بد أن المُواطن المُسالم يُحسُّ متعةً غلَّابة في التفرج عليها. كان هناك نمرٌ عابسٌ ضخم يقفز على زنجيٍّ أسود يريد أن يُمزقه إربًا، وأسدٌ يقفُ في جلال وقفةً مَهيبة، كأنه لا يرى أمامه فريسةً جديرة بأن يهجم عليها، وكانت هناك إلى جانب ذلك مخلوقاتٌ عجيبةٌ ملوَّنة لم تكُن تستحقُّ سوى نصيب ضئيل من الاهتمام.

قالت الأميرة: «نريد عند عودتنا أن نهبط من على ظهور جيادنا، ونتأمل الضيوف النادرة عن كثب.» رد الأمير قائلًا: «من العجيب حقًّا أن الإنسان يريد دائمًا أن يستثيره شيءٌ مُفزِع. إن النمر يرقد في قفصه في غاية الهدوء، أما في هذه الصورة فلا بد له أن يقفز في شراسة على زنجي؛ لكي يعتقد الناس أنهم سيرَون مثل هذا المشهد في الداخل، وكأن البشر لا يكفيهم ما في العالم من قتل واغتيال، ومن حريق ودمار، فيضطرُّ المُغنُّون في الشوارع أن يُكرِّروا عند كل زاوية أن الناس يريدون دائمًا أن يدخل نفوسهم الرعب؛ لكي يشعروا بعد ذلك كم هو جميلٌ أن يتنفس الإنسان في حرية، وكم هو شيءٌ خليق بالحمد والثناء.»

ومهما يكُن من الضِّيق الذي تركته هذه الصور المُفزِعة في النفوس، فقد زال كل أثر له على الفور عندما وصلا إلى الباب، ووجدا أنفسهما يدخلان منطقةً بهيجةً صافية الأديم. كان الطريق يُفضي إلى حافَّة النهر، الذي لم يزِد عن أن يكون مجرًى ضيقًا من الماء لا يحمل غير القوارب الخفيفة، وإن كان قد اشتهر اسمه على مر الأيام، فعُرِف بالنهر العظيم الذي يمرُّ ببلدانٍ عديدة فيُنعشها بالحياة. ثم واصل الرَّكب صعوده في هدوء ورفق بين بساتين فاكهة وحدائق زينة بُولِغ في العناية بها، وأخذوا يتطلعون حولهم إلى الناحية الطليقة الآهِلة بالسكان، حتى اعترضتهم أجمة شقُّوا طريقهم خلاله، ثم احتوتهم غابةٌ صغيرة، وزادت المناظر الخلَّابة نظرتهم حِدَّة، وأنعشتهم، وتلقَّاهم بالترحاب وادٍ من المراعي مائلٌ إلى الارتفاع، يُشبِه بساطًا من القطيفة اجتُثَّت أعشابه للمرة الثانية منذ عهد قريب، ترويه عينٌ ثرَّة تسيل في غزارة وحيوية من مرتفعٍ قائم فوقه. وهكذا تابعوا سيرهم متَّجِهين إلى موضعٍ أكثر ارتفاعًا ورحابة، بلغوه وهم في سبيلهم إلى الخروج من الغابة بعد أن بذلوا في الصعود إليه جهدًا شاقًّا، عندئذٍ أبصروا القلعة العتيقة، هدف رحلتهم، على مسافةٍ غير قليلة منهم، تسمق شامخةً خلف مجموعات جديدة من الأشجار، وكأنها قمةٌ صخرية أو

ذؤابة شجر في الغابة. ولمحوا خلفهم — إذ إن من المستحيل على الإنسان أن يبلغ هذا المكان دون أن يتلفت وراءه — من خلال ثغرات اتفق وجودها بين الأشجار العالية، قصْرَ الأمير في الجهة اليسرى، تغمره أشعة شمس الصباح، والجزء العلوي من المدينة تلفُّه سُحبٌ خفيفة من الدخان، أما في الجانب الأيمن فقد لمحوا على الفور الجزء الأسفل من المدينة والنهر بتعرُّجاته ومراعيه وطواحينه، كما تبيَّنوا قِبالتَهم منطقةً شاسعةً حافلة بالزرع والثمر.

بعد أن أشبعوا عيونهم من رؤية هذا المشهد، أو بالأحرى بعد أن أحسُّوا بالشوق يدفعهم إلى رؤية مشهد آخر أبعد منه وأرحب، على نحو ما يحدث لنا عادةً حين نتلفت حولنا من مكانٍ شامخ كهذا، مضَوا بخيولهم نحو بقعة مُسطحة عريضة مملوءة بالأحجار، وهناك واجَههم الطَّلل العظيم كأنه قمةٌ يعلوها تاجٌ أخضر، وعند قدمَيه على عمقٍ كبير تنمو بعض الأشجار الهرمة. انطلقوا يعبُرون هذه المنطقة الصخرية، حتى وجدوا أنفسهم يقفون أمام أشد جوانبها انحدارًا وأكثرها وعورة. كان ثَمة صخورٌ هائلة تقف في مكانها من أقدم الأزمنة، لم تمسسها يد التحول، ثابتةٌ متينة البنيان، تتعالى على هيئة الأبراج. أما الأكوام المُنهارة بينها من الصفائح الضخمة والأنقاض المُتراكمة المختلطة، فقد بدَت عصيَّة على هجوم أشجع الشجعان، ولكن يظهر أن المُنحدَر يُوافق طبع الشباب؛ فالإقدام على قهره والمُخاطرة بغزوه والانقضاض عليه متعةٌ تلذُّ للأعضاء الشابَّة. أبدَت الأميرة رغبتها في المحاولة، ووقف «هونوريو» على أُهبة الاستعداد لمرافقتها. أما الأمير العم فقد تمهَّل قليلًا قبل أن يُبدي موافقته؛ إذ لم يشَأ أن يظهر في مظهر الضعيف عنهم. كان عليهم أن يُوثقوا الجياد في الأشجار القائمة عند السفح، وأن يبلغوا نقطةً تبرز عندها صخرةٌ هائلة، تنبسط فوقها بقعةٌ مستوية يمكن للعين أن ترى منها مشهدًا ربما اقترب من نظرة الطائر، ولكنه مع ذلك يمتدُّ في مَشاهد متعددة بهيجة الألوان.

كانت الشمس، وقد أوشكت أن تتبوَّأ سَمْتها الأعلى، تُرسِل ضوءًا باهرًا، وبدا قصر الأمير بأجزائه المختلفة، وأبنيته الرئيسية، وأجنحته وقِبابه وأبراجه فخمًا رائعًا، والجزء الأعلى من المدينة في كامل امتداده، وكان من السهل أن يتوغَّل الإنسان ببصره في جزئها الأسفل، بل لقد كان في وُسعه أن يُميز بين محالِّ التجارة المنتشرة في السوق من خلال المِنظار المُكبِّر. وكان من عادة «هونوريو» أن يُحكِم وضع مثل هذه الأداة النافعة، فاستطاع الناظرون من خلالها أن يروا النهر المُنحدر شمالًا وجنوبًا، وأن يتأملوا الأراضي الخصبة من الناحية القريبة على هيئة سلاسل من الجبال مُتدرجةً مُتقطعة، ومن الناحية البعيدة على شكل تلال مُعتدلة، وأن يلمحوا من القرى ما لا حصر له؛ فقد تعوَّد الناس من قديم الزمان أن يختلفوا على العدد الذي يمكن أن تراه العين منها من فوق هذا المكان المرتفع.

على مدى الأُفق الشاسع رقد سكونٌ صافٍ، على نحو ما هو مألوف في ساعات الظهيرة، حين كان العجائز يقولون إن «بان»[١] ينام في مثل هذا الوقت، وإن الطبيعة تحبس أنفاسها لكيلا تُوقظه.

قالت الأميرة: «ليست هذه هي أول مرة أقف فيها على مثل هذا المرتفع الشاهق المُطلِّ على المدى البعيد، وأتأمل كيف تبدو الطبيعة الصافية نقيةً مُسالمة، وكيف توحي للإنسان كأنه لا يمكن أن يكون في العالم شيءٌ مُنغِّص على الإطلاق، حتى إذا عاد المرء إلى مساكن البشر، سواء أكانت عالية أم وطيئة، رحبة أم ضيقة، وجد دائمًا ما يُكافح من أجله ويتنازع، وما يُصحح وضعه أو يُصالح.»

هتف «هونوريو»، الذي كان يتطلَّع في هذه الأثناء من خلال المِنظار المُكبِّر، قائلًا: «انظروا إلى هناك! انظروا إلى هناك! لقد بدأ السوق يحترق! وتطلَّع الجميع إلى حيث أشار، فلاحَظوا الدخان يتصاعد، واللهب يُرسِل سحابة من البخار تحجب وجه النهار.» وهتف صوت كان صاحبه ما يزال يتطلَّع من خلال المِنظار: «إن النار تنتشر فيما حولها!» وظهرت الكارثة واضحة لعينَي الأميرة بغير حاجة إلى المِنظار، كانت الأعيُن ترى من حين إلى حين وهجًا ساطع الاحمرار، وتصاعد البخار إلى أعلى، وتكلَّم الأمير العم قائلًا: «هيَّا نعُد أدراجنا، ليس هذا حسنًا؛ لقد كنت أخشى دائمًا أن أحيا الكارثة للمرة الثانية.»

فلما هبطوا إلى السفح، وامتطَوا صهوة جيادهم، قالت الأميرة للسيد العجوز: «أسرِعْ أنت إلى هناك، ولا تنسَ أن تأخذ السائس معك. اترك لي «هونوريو»، وسوف نتبعكم في الحال.»

أحسَّ العم بما في هذه الكلمات من الحكمة، لا بل من الضرورة، وانطلق مُسرِعًا بجواده بقدر ما تسمح به الأرض، هابطًا على المُنحدَر الحجري الخرِب.

قال «هونوريو» بعد أن اعتدلت الأميرة في جِلستها على ظهر الجواد: «يا صاحبة السُّمو! أبتهل إليك أن تسيري ببطء! إن رجال الإطفاء في المدينة والقصر على أحسن نظام، ولن يُربِكهم مثل هذا الحادث المُفاجئ الفظيع. أما هنا فالأرض كثيرة المزالق، مملوءة بالأحجار الصغيرة والأعشاب القصيرة، والإسراع بالركوب لا يُؤتمَن، ولن نبلغ المدينة حتى

---

[١] أحد آلهة الخصب والرعي في الأساطير الإغريقية، ويُصوَّر في هيئةٍ بشرية، ولكن بقدمَي عنزة وقرنَين. (م)

تكون النار قد أُخمِدت.» لم تستطع الأميرة أن تُصدق ما قال؛ فقد رأت الدخان ينتشر، واعتقدت أنها لمحت برقًا مُتوهجًا، وسمعت رعدًا، وتحرَّكت في مُخيِّلتها كل الصور المُفزِعة، التي أفلحت للأسف حكايةُ العم المُبجَّل المُتكرِّرة عن حريق السوق الذي رآه ذات ليلة، في أن تحفرها فيها حفرًا عميقًا.

كانت تلك الحادثة مُخيفة حقًّا، مُباغِتة ومُؤثِّرة، بحيث تترك في النفس فكرةً مُفزِعة عن الكارثة المُتكرِّرة لا تزول عنها مدى الحياة. كان الوقت ليلًا عندما شبَّ في أرض السوق الواسعة، التي تغصُّ بالمحالِّ الصغيرة، حريقٌ مُفاجئ راح يأكلها واحدًا بعد الآخر، قبل أن يتمكن النائمون في هذه الأكواخ الهشَّة وحولها أن يجفُلوا من أحلامهم العميقة، وقفز الأمير نفسه إلى النافذة، وهو المسافر الغريب الذي وصل من سفره مُتعَبًا ولم يكَد يستسلم للنوم، ورأى كل ما أمامه يتوهَّج بنارٍ مُخيفة، وألسنة اللهب تقفز على اليمين والشمال، وتُوشِك أن تمتدَّ إليه.

انعكست ظلال النيران على البيوت المُنتشرة في السوق، فكسَتها بالحُمرة، وبدَت كأنها تتوهَّج بالفعل، وتُهدَّد بالاحتراق بين لحظة وأخرى. ثار العنصر في الأدوار السفلى ثورةً غاضبةً متَّصِلة، وقعقعَت الألواح الخشبية، وانشقَّت عوارض السقف، وتطايرت الثياب في الهواء، وتناثرت مِزَقُها المُهلهَلة المُلتهِبة التي اسودَّت من الدخان في الجو، وكأن الأرواح الشريرة التي تتقلب في عنصرها، وتتشكل أشكالًا مختلفة، تأكل بعضها بعضًا وهي ترقص جَذِلةٌ نَشْوانة، ثم تعود فتُحاول هنا وهناك أن تشرئبَّ برءوسها من بين أمواج اللهب. أنقذ كل ما وقعت عليه يده وهو يصرخ صراخًا مُفزِعًا، وبذل الخدم والأتباع مع أسيادهم أقصى جهدهم ليجرُّوا معهم الأمتعة التي دهمَتها ألسنة اللهب، ويستخلصوا من الأطقُم المُشتعلة ما يستطيعون استخلاصه من بين براثن النيران؛ لكي يضعوها في الصناديق التي لم يجدوا في نهاية الأمر مَناصًا من أن يتركوها طعامًا للهب المُتدافع نحوهم. وكم من واحد منهم تمنَّى لو تسكن النار الزاحفة لحظةً واحدة؛ لكي يُلقي نظرةً مُتأملة على ما حوله، فإذا بالنيران المُشتعلة تتلقَّفه وتأكل متاعه، وما كان يحترق ويتوهَّج في ناحية، كان لا يزال في ناحيةٍ أخرى غارقًا في ليلٍ مُعتِم السواد. أصحاب طِباع عنيدة، أناسُ ذوو إرادة قوية وقفوا في ضراوة يُقاومون العدُو الضاري، واستطاعوا أن يُنقذوا بعض أشيائهم بعد أن خسروا حواجبهم وشعورهم. تجدَّدت للأسف صورة هذه البلبلة المُفزعة أمام روح الأميرة الجميل، فبدا الأفق المُتألق في ضوء الصباح وصفائه غائمًا مُتدثرًا بالضباب، وكست عينَيها سحابة حزن مُعتِمة، واكتسبت الغابة والمراعي مظهرًا غريبًا يخنق الأنفاس.

لم يكَد الركب يهبط إلى الوادي المُسالم الوديع، دون أن يلتفت إلى الرطوبة المُنعِشة المُنبعِثة منه، ويقطع بضع خطوات بعيدًا عن النبع المُتدفق في جدولٍ قريبٍ مُنساب، حتى لمحت الأميرة شيئًا عجيبًا يتحرك في دغلٍ يقع في وادي المراعي السفلى. عرفت على الفور أنه النمر، يقفز قادمًا نحوها كما رأته مرسومًا منذ حين، واجتمعت هذه الصورة إلى الصور المُفزعة التي كانت تشغل بالها في هذه اللحظة، فأثارت في نفسها أعجب الانطباعات. هتف «هونوريو»: «اهربي يا سيدتي الكريمة! اهربي بنفسك!» لوَت زمام الجواد، وسارت به ناحية الجبل الوعر، الذي هبط الرَّكب عليه منذ قليل. أما الشابُّ فواجَه الوحش، وانتزع مُسدسه، وأطلق عليه الرصاص عندما ظن أنه قريب منه بمسافةٍ كافية، غير أن الرصاصة أخطأته للأسف؛ فقد قفز النمر جانبًا، وتعثَّر الجواد، وتابع الحيوان العابس طريقه، وأخذ يصعد الجبل في أعقاب الأميرة مباشرة. راحت تحثُّ الجواد بأقصى سرعةٍ مُمكِنة، صاعدةً على الطريق الحجري الوعر، لا يكاد يُخالجها الخوف من أن يعجز المخلوق الرقيق الذي لم يتعود على مثل هذا المجهود الشاق عن احتمالها. انطلق الجواد بسرعةٍ تفوق طاقته، تُحفِّزه صاحبته المكروبة، فاصطدم بالصخور المُستديرة على المُنحدَر مرتَين، حتى سقط على الأرض فاقِدَ القوة بعدَ مجهودٍ شاقٍّ. لم يُعجِز السيدةَ الجميلةَ أن تقفَ على قدمَيها على الفور، مُصممةً خفيفة الحركة، وكذلك نهض الجواد، ولكن النمر كان يزداد اقترابًا، وإن كان قد كفكف من سرعته قليلًا؛ فقد بدا كأن الأرض الوعرة، والأحجار الناتئة، قد عطَّلت من اندفاعه، ولكن انطلاق «هونوريو» على أثره، وخُطاه المُعتدِلة التي كادت أن تُحاذيه، كان يبدو كأنها تستحثُّ قوَّته وتُحفِّزها من جديد.

بلغ المُتسابقان في نفس الوقت الموضعَ الذي كانت تقِفُ فيه الأميرة مُستنِدةً على جوادها. مال الفارس مُنحنيًا بجسده. أطلق الرصاص من بندقيته الثانية، وأصاب الوحش في رأسه، فسقط لساعته، وتمدَّد بطوله على الأرض، فاتضح للعين بأسه وضراوته المُرعِبة، التي لم يبقَ منها غير صورتها الجسدية.

كان «هونوريو» قد قفز من على جواده، وركع على ركبته أمام الحيوان، وراح يُسكن اختلاجاته الأخيرة، بينما أمسك في يده اليمنى ببندقيته. كان الشابُّ جميل الطَّلعة، وكان قد وثب مُندفعًا إلى الأمام كما اعتادت الأميرة أن تراه في ألعاب الرماية والمصارعة. كذلك كانت تُصيب رصاصاته في مسابقات الفروسية الرأس التركي المثبَّت فوق العمود، وتنفُذ إلى الجبهة تحت العمامة مباشرة، وكذلك كان يغرز بقفزةٍ خفيفة منه سيفَه الناصع في رأس العبد الأسود، فيلتقطه من الأرض. كان في جميع هذه الفنون بارعًا موفور الحظ، وقد اجتمعت كلها هنا على أحسن وجه.

قالت الأميرة: «أجهِزْ عليه؛ فإني أخاف أن يُؤذيك بمَخالبه.» فأجابها الشاب قائلًا: «معذرة، إنه قد شبع موتًا، ولست أُحبُّ أن أُفسِد جِلده، الذي يصلح لأن يُزيِّن لكم مركبة الجليد في الشتاء القادم.»

قالت الأميرة: «لا تُجدِّف! إن كل ما يكمن في أعماق القلب من التقوى والورع، يتفتَّق في هذه اللحظة.» هتف «هونوريو»: «أنا أيضًا لم أكُن في أي وقت مضى أتقى منِّي في هذه اللحظة؛ وأنا لذلك أُفكر فيما يُضفي البهجة على القلب حين أتطلَّع إلى هذا الجلد، وأتصوَّر أنه سيجلب لك المتعة في رحلاتك.» ردت الأميرة قائلة: «إنه سوف يُذكِّرني دائمًا بهذه اللحظة المُفزِعة.»

أجاب الشاب ووجنتاه تلتهبان: «وما هو في الحقيقة إلا علامة انتصار بريئة، كما تُعرَض أسلحة العدو المُنهزم أمام القائد المُظفَّر.» قالت الأميرة: «سوف أذكُر دائمًا جسارتك وبراعتك، ولا يجوز لي أن أُضيف أن في استطاعتك أن تثق مدى الحياة في امتناني لك، وتتأكد من عفو الأمير عنك.

ولكن قِف على قدمَيك، لقد زال من الحيوان كل أثر للحياة، لنتدبَّر ما بقي أمامنا. قِف على قدمَيك أولًا!»

أجابها الشاب قائلًا: «لما كنت أركع الآن أمامك، في وضع قد يُحرَّم عليَّ في كل مناسبة أخرى، فدعيني في هذه اللحظات التي أحظى فيها بالتِفاتك ألتمس اليقين من عطفك، والتأكد من عفوك ورحمتك. لقد طالما توسَّلت إلى زوجك النبيل أن يأذن لي بالسفر في رحلةٍ بعيدة. إن الواجب على من يُسعِده الحظ بالجلوس إلى مائدتكم، ومن تُشرِّفونه بمُسامرة جماعتكم أن يكون قد رأى العالم. إن المسافرين يتدفَّقون علينا من كل مكان، وعندما يدور الحديث عن مدينة من المدن، أو عن بقعة هامة في أي جزء من أجزاء العالم، يسأل الحاضرون زوجكم إن كان قد زارها بنفسه. ولا يُوصَف أحد بالفهم حتى يكون قد رأى ذلك كله، وكأن الإنسان لا يتعلم إلا ليُعلِّم غيره.»

عادت الأميرة تقول: «قِف على قدمَيك! إنني أكره أن أطلب شيئًا أو أتمنى شيئًا يخالف ما يقتنع به زوجي، ولكنني أعتقد، إن لم أكن مُخطئة، أن السبب الذي جعله يستبقيك حتى الآن سيزول قريبًا. لقد كان غرضه أن يراك وقد أصبحت نبيلًا ناضجًا مُستقلًّا، يُشرِّفه ويُشرِّف نفسه في خارج البلاد، كما شرَّفه في البلاط، وأحسب أن صنيعك هذا هو خير جواز سفر يمكن أن يحمله شابٌّ مِثلك ليجوب به أنحاء العالم.»

لم يكن لدى الأميرة متَّسَع من الوقت لتُلاحظ الحزن الذي كسا وجه الشاب بدلًا من فرحة الشباب، ولا كان لدى الشاب وقتٌ للتعبير عن إحساسه؛ فقد هرولت امرأة صاعدةً على الجبل وهي تُمسِك بصبي في يدها نحو الجماعة التي نعرفها، ولم يكَد «هونوريو» ينهض على قدمَيه ويُفيق إلى نفسه، حتى كانت تُلقي بنفسها فوق جثة النمر وهي تُولول وتصرخ. كان من السهل أن يُدرِك المرء على الفور من مسلكها، ومن ملابسها الملوَّنة الغريبة التي كانت مع ذلك نظيفةً مُحتشمة، أنها هي صاحبة هذا المخلوق الممدَّد على الأرض وحارسته. ركع الصبي إلى جانبها، وكان أسود العينَين، أسود خصلات الشعر، يحمل في يده نايًا، ويبكي بكاءَ أمه، في تأثُّر عميق، وإن يكن أقل منها عنفًا.

تفجَّرت لوعة هذه المرأة الشقيَّة جيَّاشةً عارمة، ثم فاض منها نهر من الكلمات مُختنِقٌ مُتدافع، كما يتدفَّق الجدول مُنحدرًا من صخرة إلى صخرة، في لغةٍ فطرية، قصيرة ومُتقطعة، نفَّاذةٍ ومُؤثِّرة، عبثًا يُحاول المرء أن يُترجمها إلى لهجاتنا المألوفة، ولا يجوز لنا أن نتكتَّم عن القارئ مضمونها على وجه التقريب: «قتلوك أيها الحيوان المسكين! قتلوك بغير داعٍ! كنتَ أليفًا، وكان أحب شيء إليك أن ترقد في هدوء وتنتظر حتى نحضر إليك؛ فقد كانت أقدامك تُؤلِمك، ومخالبك زالت عنها القوة! وكنت تفتقد الشمس الدافئة التي تشدُّ بأسها. بين أشباهك كنتَ أجمل النمور. من قُدِّر له أن يرى نمرًا ملوكيًّا في هذه العظمة ممدَّدًا في نومه كما ترقد أنت الآن، ميتًا لا يستطيع أن يقف على قدمَيه؟ حين كنت تستيقظ في مطلع النهار، وتفتح حنكك، وتمدُّ لسانك المُحمرَّ، كنتَ تبدو وكأنك تبتسم لنا، وكنت، على الرغم من زئيرك، تتناول طعامك وأنت تمرح وتلعب من يدَي امرأة، من بين أصابع طفل! ما أكثر ما صحِبْناك في أسفارك، وما أكثر ما كانت صحبتك ضرورية لنا ومُثمِرة!»

لم تكن قد فرغت من شكواها حين لمح الحاضرون فوق المُرتفَع الأوسط من الجبل المُطل على القصر فُرسانًا يندفعون نحوهم، سرعان ما عرفوا فيهم الأتباع المُرافقين للأمير في رحلة الصيد، يتقدَّمهم الأمير نفسه، كانوا يصطادون في المناطق الجبلية الخلفية حين رأوا سحب الدخان تتصاعد من الحريق، فاجتازوا الوِديان والمَهاوي وكأنهم يُطارِدون صيدًا محمومًا، سالكين الطريق المستقيم المؤدِّي إلى هذه العلامة المُحزِنة. وما إن بلغ ركبهم القمة الحجرية العارية حتى توقفوا عن السير، وأخذوا يُبحلقون أمامهم؛ فقد لمحوا الجماعة التي نعرفها مُتميزة تميزًا عجيبًا على الأرض المُستوية الخالية، وبعد التعارف الأول عقدت الدهشة الألسنة، وبعد أن استراحوا بعض الشيء أخذوا يشرحون لهم بكلماتٍ قليلة ما غمض عليهم من المشهد الذي وجدوه أمامهم. وهكذا وقف الأمير أمام الحادث

النادر العجيب، تُحيط به كوكبة من الفُرسان والأتباع الذين أسرعوا يلحقون به عند قدمَيه. لم يكن ثَمة مجالٌ للتردد فيما ينبغي فِعله؛ فقد أخذ الأمير يُصدِر أوامره، ويُشرِف على تنفيذها، حين اندفع إلى داخل الحلقة رجلٌ عظيم البُنيان، عليه ملابس ملوَّنة عجيبة تُشبِه ملابس المرأة والصبي. عبَّرت الأسرة مجتمعةً عن ألمها واستغرابها. أما الرجل فقد وقف في اتزانٍ أمام الأمير، تفصله عنه مسافة من البُعد يفرضها الخشوع والإجلال، وقال: «ليس هذا هو أوان الشكوى، آهٍ يا سيدي. يا أيها الصيَّاد العظيم، إن الأسد أيضًا قد أفلت من مكمنه، وانطلق نحو الجبل، ولكن ترفَّقوا به ولا تُؤذوه. كُونوا رحماء حتى لا يُقتَل كما قُتل هذا الحيوان الطيب.»

سأل الأمير: «الأسد؟ وهل تعلَم أثره؟»

– «أجل يا سيدي. إن فلاحًا يسكن هناك في الوادي، استطاع أن ينجو بنفسه فوق شجرة، قد دلَّني على الطريق الصاعد إلى اليسار، ولكنني أبصرت أمامي جماعةً كبيرة من الناس والجياد، فأسرعت إلى هنا يدفعني حب الاستطلاع والتماس المعونة.»

قال الأمير مُصدِرًا أوامره: «إذن فعَلى ركب الصيد أن يتَّجه إلى هذه الناحية. عليكم أن تُعمروا بنادقكم. انصرفوا إلى عملكم في رفق وأناة. لن يقع شر لو طاردتموه إلى مجاهل الغابات، ولكننا لن نستطيع في نهاية المطاف، أيها الرجل الطيب، أن نصون مخلوقكم من الأذى. ما الذي جعلك تُهمل في حراسته حتى أفلت منك؟»

أجاب الرجل قائلًا: «شبَّ الحريق. تمسَّكنا بالهدوء وأعصابنا مُتوفزة. انتشرت النار بسرعة، ولكنها بقيت بعيدة عنا. كان عندنا ما يكفينا من الماء للدفاع عن أنفسنا، ولكن شحنة من البارود طارت في الجو وقذفت بالنيران على مسافةٍ قريبة منا. أسرعنا بالفرار، وها نحن الآن قومٌ تُعساء.»

كان الأمير ما يزال مشغولًا بإصدار أوامره، ومضت لحظةٌ بدا فيها كأن كل شيء يتعثر، عندما رأى الحاضرون رجلًا يُهرول نحوهم من القلعة العتيقة، سرعان ما عرفوا فيه الخفير المُعيَّن لحراسة مرسم الفنان؛ فقد كان يُقِيم فيه، ويتولَّى الإشراف على العمال. أقبل يقفز نحوهم وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه، ولم تمضِ لحظة حتى كان يُعلِن بكلماتٍ قليلة أن الأسد قد لجأ إلى السور العالي، وأنه يتمدد هناك في ضوء الشمس، ويرقد في غاية الهدوء عند أقدام شجرة من أشجار الزَّان. ثم أضاف الرجل في سخط: «لماذا حملت بندقيتي أمس إلى المدينة للتنظيف! لو أنها كانت الآن في يدي لما عاد إلى الوقوف على قدمَيه، ولأصبح جلده مِلكًا لي، واستطعت أن أتدثَّر به مدى الحياة.»

عندئذٍ قال الأمير، الذي نفعته تجاربه العسكرية السابقة في هذا الموقف أيضًا، حين كان يجد نفسه في حالاتٍ كثيرة في مواجهة شر لا مَحيد عنه يتهدَّده من نواحٍ كثيرة: «إذا صُنَّا أسدك فأي ضمان تُقدِّمه لي على ألا يؤذي أهل مملكتي؟» رد الوالد مُتعجلًا: «هذه المرأة هنا وهذا الصبي على استعداد لأن يُروِّضاه ويُحافظا على هدوئه، حتى أُحضِر الصندوق المُطعم، فنُعيده إلى مكانه دون أن يناله ضرر، أو يُصيب أحدًا بأذًى.»

بدا على الصبي أنه يريد أن يُجرِّب نايه، وكانت آلة من ذلك النوع الذي اعتاد الناس أن يُسمُّوه بالناي الناعم الحلو. كانت معقوفة كالغليون، ومن عرف كيف ينفخ فيها استطاع أن يُخرِج منها أعذب الأنغام. سأل الأمير الحارس: «كيف تمكَّن الأسد من الوصول إلى ذلك المُرتفَع؟» فردَّ هذا قائلًا: «عبر النفق الذي تُحيط به الأسوار من جانبَيه، وهو الذي كان دائمًا المدخل الوحيد، وينبغي أن يظل كذلك. لقد غيَّرنا معالم الدربَين الصاعدين، بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إلى القلعة المسحورة حتى يسلك ذلك الطريق الأول الضيق، الذي يريد الأمير «فريدريش» أن يُنمِّقه بما يشاء له روحه وذوقه.»

تفكَّر الأمير قليلًا، وأخذ يتطلَّع إلى الصبي الذي كان لا يزال يُجرِّب نايه فيخرج منه نغمٌ هادئٌ رقيق، ثم التفت إلى «هونوريو» وقال: «لقد حقَّقتَ اليوم الكثير، فأتِمَّ عمل اليوم. قُم باحتلال الطريق الضيق، وجهِّز بنادقك في حالة استعداد، ولكن لا تُطلِق الرصاص إلا إذا لم تجد وسيلةً أخرى لتخويفه وردِّه على أعقابه مذعورًا. أشعلوا على كل الأحوال نارًا ليخاف منها إذا أراد أن ينزل من مكانه، وما بقي بعد ذلك فسيتعهَّد به الرجل وزوجته.» أسرع «هونوريو» يُنفِّذ ما أُلقي إليه من الأوامر.

أخذ الصبي يُتابع لحنه، الذي لم يكن في الحقيقة لحنًا، بل سلسلة من الأنغام لا تخضع لقانون، وربما كان هذا هو السبب الذي جعلها تأسر القلب. بدا على الواقفين حوله كأنهم مسحورون من وقْعِ هذا النغم الذي ينساب كالنشيد، عندما بدأ الوالد يتكلم في حماسٍ مُعتدل ويقول: «الرب وهب الأمير الحكمة، كما ألهمه المعرفة بأن جميع أعماله حكيمة، كلٌّ بحسب طبيعته؛ انظروا إلى الصخر كيف يقِفُ ثابتًا لا يتحرك، وكيف يتحدى تقلبات الجو وضوء الشمس، أشجارٌ سحيقة القِدم تُزيِّن هامته، يُطلُّ على ما حوله والتاج فوق رأسه، حتى إذا انهار جزء منه إلى المُنخفَض، لم يُرِد أن يبقى على حاله القديم، بل تساقط مُتفتتًا إلى قِطعٍ عديدة، وغطَّى جانب المُنحدَر، إلا أن هذه القِطع الصغيرة لا تريد أن تتلبَّث في مكانها. إنها تقفز مرِحةً إلى أسفل، الجدول يلتقطها، وإلى النهر يحملها. إنها لا تُقاوم ولا تُعاند، ولا هي حادَّة الأضلاع، بل ملساء مُستديرة، تشقُّ طريقها مُسرعةً،

وتجري من نهر إلى نهر حتى تنتهي إلى المُحيط، هناك يخطر العمالقة جماعات، وفي الأعماق يتزاحم الأقزام.

ومع ذلك فمن ذا الذي يُمجِّد الرب الذي تُسبِّح النجوم بحمده من الأزل إلى الأبد؟ لماذا تتلفَّتون بعيدًا؟ تأمَّلوا هذه النحل! إنها تنشط في أواخر الخريف، فتجمع غذاءها، وتبني لها بيتًا ذا زوايا أُفقية وحادَّة، يشترك فيه ملكتها وعاملاتها. انظروا إلى هذه النملة! إنها تعرف طريقها ولا تُضلُّه، تبني مسكنها من الأعشاب والحصى وإبر الشوك، إنها تبنيه على ارتفاع وتُحكِم بِناءه، لكن تعبها قد ذهب هباءً؛ فالحِصان يضرب الأرض بحوافره، ويهدم كل ما بنَته. انظروا هناك! إنه يدوس على قوائم سقفها، ويُبعثِر ألواحها، ويلهث فارِغَ الصبر، ولا يريد أن يهدأ؛ ذلك أن الرب قد جعل الخيل رفيقًا للريح وخِدنًا للعاصفة؛ حتى يحمل الرجل إلى حيث يريد، والمرأة إلى حيث تشتهي. لكنه دخل غابة النخيل، الأسد دخل غابة النخيل، جادَّ الخُطا سار يتوغَّل في الصحراء، هناك يسُود جميع الحيوان، وما من أحد يقف في وجهه.

ومع ذلك، فالإنسان يعرف كيف يُروِّضه، وأشد المخلوقات ضراوةً يرهب صورة الرب التي جُبِل الملائكة أنفسهم على مثالها، أولئك الذين يُطيعون الله ويُطيعون من يُطيعه؛ ذلك أن دانيال لم يخشَ شيئًا حين وجد نفسه في مغارة الأسد، بقي مؤمنًا ثابِتَ الجنان، لم يقطع الزئير الوحشي صلاته الورِعة.»

صاحَب الصبيُّ هذه الخُطبةَ المُعبِّرة عن الحماس الفطري هنا وهناك بأنغامٍ ساحرة، فلما فرغ الأب منها بدأ الصبي يُغنِّي بحنجرةٍ نقية، وصوتٍ جليٍّ، وتوقيعاتٍ بارعة، وما لبث الأب أن أمسك بالناي، وأخذ يُصاحب ابنه الذي راح يُنشِد:

«من المغارات، في الحُفَر،
أسمع أنشودة النبي،
ترِفُّ من حوله الملائك،
تُنعِشه بالندى النقي
فأي شر، وأي ضر
يحدث للطيِّب التَّقِي؟
تطوف من حوله الأُسود،
تريد لو أشبعَته لثمًا،

لو زادها الحُب منه قُربًا.
سِحر الأناشيد والأغاني
تفيض من قلبه الوفي،
قد عطفت قلبها إليه.»

استمرَّ الأب في مُصاحبة هذا المقطع بصفارته، وشاركت الأم هنا وهناك بصوتها.
زاد من تأثير الغناء على الحاضرين أن الصبي راح يُعِيد سطور هذه المقطوعة بترتيبٍ آخر، وأنه، وإن لم يأتِ بمعنًى جديد، قد زاد العاطفة في ذاتها تأثرًا وانفعالًا:

«ملائكة الله في موكب
تُرفرف صاعدةً هابطة؛
لتُنعِش أرواحنا بالنغم،
وتُسعِدنا بغناء السماء!
بجوف المغارات، أو في الحُفَر،
أليس الصبي هنا في أمان؟
أغانٍ تفيض علينا التُّقى،
وتُنقِذنا من مَهاوي الشقاء.
ملائكة الله في موكب
تُرفرف صاعدةً هابطة،
وتلك مشيئته والقضاء!»

وهنا بدأ الثلاثة جميعًا يُنشِدون بصوتٍ قويٍّ مرتفع:

«الخالد يحكم في الأرض،
نظرته سادت في البحر.
الأُسد انقلبت حُملانًا،
والموج تَراجَع للخلف،
والسيف المصقول اللامع
أمسى يتجمَّد في الغِمد.
الأمل تحقَّق والدين،

وتجلَّت معجزة الحب
نورًا في صلوات المؤمن.»

وقف الجميع في سكون، يُرهِفون الأسماع ويُنصِتون، حتى إذا خفتَت الأنغام بدا أثرها عليهم واضحًا ملحوظًا. كانوا كأنما هبط عليهم السلام، وغلب التأثر كل واحد منهم، فظهر على وجهه في صورةٍ مختلفة. أما الأمير، الذي بدا عليه كأنه بدأ الآن يُدرِك الكارثة التي هدَّدته منذ قليل، فقد انحنى ينظر إلى زوجته التي استندت إليه، ولم تستطع أن تملك نفسها من إخراج المنديل المُطرَّز لتُغطي به عينَيها. شعرت بالارتياح إذ أحسَّت بصدرها الشاب يتخفَّف من عبءٍ أثقلته به اللحظات السابقة. خيَّم على الجميع سكونٌ شامل، وبدا كأنهم قد نسُوا الأخطار التي تتهدَّدهم؛ الحريق من تحتهم، ومن فوقهم الأسد الرابض في هدوءٍ مُريب.

أشار الأمير بإحضار الخيول، فأشاع الحركة في الجمع الساكن من جديد، ثم التفت إلى المرأة قائلًا: «هل تعتقدين إذن أنكم تستطيعون بغنائكم، وغناء هذا الصبي، وعلى رنين نغمات الناي، أن تُهدِّئوا روع الأسد الهارب حيثما لقيتموه، وأن تُعِيدوه إلى مكمنه دون أن يناله الضرر، أو يمسَّ أحدًا بشر؟»

ردوا بالإيجاب، وأمَّنوا على قولهم مؤكِّدين، وطلبوا أن يصحبهم الحاجب ليدلَّهم على الطريق، فأُجيبوا إلى طلبهم. ثم أسرع الأمير مُبتعدًا مع نفر من أتباعه، وتبعته الأميرة مُبطئةً مع بقية الحاشية. أما الأم وولدها فمضيا يصعدان الطريق الوعر المؤدي إلى الجبل، يُرافقهما الحارس الذي أحكم بندقيته على كتفه.

وقبل أن يضعوا أقدامهم على النفق المؤدي إلى مدخل القلعة، وجدوا الصيَّادين مشغولين بتكويم الحطب الجاف؛ لكي يتمكنوا من إشعال النار إذا دعت الحاجة إلى ذلك. قالت المرأة: «لا داعي لهذا؛ فسوف يتم كل شيء في سلام.»

لمحوا «هونوريو» من بعيد جالسًا على جانب من السور، واضعًا بندقيته ذات الفوهتَين في حجره، وكأنه يستعدُّ لمواجهة كل حادث طارئ، ولكن لم يبدُ عليه أنه انتبه إلى القادمين نحوه؛ فقد جلس في مكانه كأنه مُستغرِق في أفكاره، يتلفَّت حوله كما لو كان شارد البال. توسَّلت المرأة إليه ألا يأمر بإشعال النار، ولكن بدا عليه أنه لم يُعِرها غير قليل من الانتباه، وعادت المرأة تستعطفه في حرارة، وتهتف قائلة: «أيها الشاب الجميل، لقد قتلتَ نمري. أنا لا ألعنك، أبقِ على أسدي. أيها الشاب الطيب، إنني أُباركك.»

تطلَّع «هونوريو» أمامه، هنالك حيث كانت الشمس تميل للغروب. هتفت به المرأة: «أنت تتطلع للسماء. حسنًا تفعل. هناك يستطيع المرء أن يفعل الكثير. أسرع فحسب. لا تتردد. سوف تتغلَّب، ولكن تغلَّبْ على نفسك أولًا.»

هنالك بدا عليه كأنه يبتسم. مضَت المرأة صاعدةً على الطريق الوعر المُرتفِع، ولكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها من الالتفات وراءها مرةً أخرى؛ لتُلقي نظرة على الشاب الذي تخلَّف وحده. كانت شمس الغروب تكسو وجهه بالاحمرار، وخُيِّل لها كأنها لم ترَ في حياتها شابًّا في مثل هذا الجمال.

قال الحارس المُرافق لها: «إذا استطاع طفلك، كما تعتقدين، أن يستدرج الأسد ويُهدِّئه بالغناء والعزف على الناي، فسوف نتمكن من السيطرة عليه في غاية السهولة؛ إذ إن الحيوان الضاري قد اتخذ له مأوًى قريبًا من القبو المفتوح، الذي أفلحنا في أن نُقِيم فيه مدخلًا يؤدي إلى القلعة بعد أن اندثرت البوابة الرئيسية، فإذا تمكَّن الصبي من استدراجه إلى الفناء، فسوف يكون من السهل عليَّ أن أُغلِق الفتحة بجهدٍ بسيط. أما الصبي فيستطيع عندئذٍ، إن راق له ذلك، أن يفلت من الوحش عن طريق أحد السلالم اللولبية الصغيرة التي يراها في الزاوية. نريد أن نتخفى، أما أنا فسأضع نفسي بحيث تكون رصاصتي على استعداد لنجدة الصبي في أية لحظة.»

قالت المرأة: «ليس هناك ضرورة لكل هذه الاحتياطات. إن الله والفن والتقوى والحظ ستُدبِّر حتمًا ما فيه الخير.»

أجاب الحارس: «ليكُن الأمر كما تقولين، ولكنني أعرف واجباتي. سأتقدَّمكما أولًا على طريقٍ صاعدٍ شاقٍّ، ونعتلي السور المُواجه للمدخل الذي ذكرته مباشرة، والذي يستطيع الصبي أن يهبط منه كما لو كان يهبط إلى ساحة الملعب، ويستدرج الحيوان إلى هناك بعد أن يُهدِّئه.»

تم بالفعل ما أشار به الحارس، وأخذ هو والأم ينظران من مَخبئهما فوق السور كيف ظهر الصبي في الفناء المكشوف بعد أن هبط السلالم اللولبية، وكيف اختفى في الركن المُعتِم المُواجه لهما، ثم سمعا في نفس الوقت نغمًا ينساب من الناي، أخذ يخفُت شيئًا فشيئًا حتى انقطع. مرَّت فترة من السكون مُفزِعة حقًّا، وبعث الموقف الإنساني النادر الخوف في قلب الصائد العجوز الذي جرَّب الأخطار.

قال في نفسه إن من الأفضل أن يتقدَّم لمواجهة الوحش الخطير بنفسه. أما الأم التي مالت على السور، وراحت تتصنَّت صافية الأسارير، فلم يبدُ عليها ما ينمُّ عن القلق.

وأخيرًا سُمع صوت الناي من جديد، وبرز الصبي من المغارة بعينَين لامعتين راضيتين، يتبعه الأسد بخطواتٍ بطيئة، ولكنها تكشف على ما يبدو عن ألمٍ يُعاني منه. كان يظهر عليه من حين إلى حين كأنه يريد أن يتمدَّد بجسده على الأرض، غير أن الصبي راح يسُوقه في نصف دائرة خلال الأشجار الزاهية التي تساقطت بعض أوراقها. فلما أرسلت الشمس أشِعَّتها الأخيرة من خلال كوَّة في الأطلال الخرِبة، جلس الصبي أخيرًا على الأرض، وكأنه قد تجلَّى واستحال نورًا خالصًا، وبدأ يُنشِد من جديدٍ أغنيته التي تبعث في النفس الطمأنينة والسلام، والتي لا يسعنا نحن أيضًا إلا أن نُعِيدها:

«من المغارات، في الحُفَر،
أسمع أنشودة النبي،
تطوف من حوله الملائك،
تُنعِشه بالندى النَّقِي
فأي شر، وأي ضر
يحدث للطيِّب التقيِّ؟
تطوف من حوله الأُسود،
تريد لو أشبعَته لثمًا،
لو زادها الحُب منه قُربًا.
سِحر الأناشيد والأغاني
تنساب من قلبه الوفي،
قد عطفت قلبها إليه.»

كان الأسد في هذه الأثناء قد تمدَّد على الأرض، وانعطف بكليَّته على الصبي، ورفع مِخلب يُمناه الأمامية الثقيل فوضعه على حجره، فراح الصبي يُربِّت عليه في رفق وهو ما يزال يُردِّد أغنيته، ولكنه سرعان ما لاحَظ شوكةً حادَّة قد نفَذت بين حنايا اللحم. مدَّ يده في حرص فاستلَّ الشوكة الجارحة، وتناول مُبتسمًا منديله الحريري الملوَّن الذي يلفُّه حول رقبته، وربط به مِخلب الوحش المُخيف، واشتدَّ الفرح بالأم التي مالت إلى الوراء مادةً ذراعَيها، ومن يدري؟ فلعلها كانت تهتف وتُصفِّق على مألوف عادتها، لو لم يُنبِّهها الحارس بلكزةٍ غليظة من قبضة يده إلى أن الخطر لم يزَل بعد.

انطلق الطفل يُغنِّي في نشوة الانتصار، بعد أن مهَّد لأنشودته ببعض الأنغام:

«الخالد يحكم في الأرض،
نظرته سادت في البحر.
الأُسد انقلبت حُملانًا،
والموج تَراجَع للخلف،
والسيف المصقول اللامع
أمسى يتجمَّد في الغِمد.
الأمل تحقَّق والدين،
وتجلَّت معجزة الحب
نورًا في صلوات المؤمن.»

لو أمكن للإنسان أن يتصوَّر في ملامح مثل هذا المخلوق الباطش، جبَّار الغابات، وطاغية مملكة الحيوان، تعبيرًا عن الود والامتنان، فله أن يتصوَّر أن ذلك هو ما حدث هنا. والحق أن الطفل قد بدا في صفائه كأنما هو غالبٌ قويٌّ مُنتصِر، أما الأسد فلم يبدُ كالمغلوب؛ لأن قوَّته ظلَّت كامنةً مستورة فيه، بل ظهر في صورة الوحش المروَّض الذي استسلم لإرادته المُسالمة. استمرَّ الصبي يُصفِّر في الناي ويُغنِّي، على عادته في إدماج السطور في بعضها البعض، وإضافة الجديد منها إليها:

«طوبى لأطفالٍ صغار
يهديهم الملكُ الرحيم.
الشرَّ يمنع عنهم،
ويُشجع الفعل الجميل.
واللحن والحس التقي،
يُقيدان ويأسران
بالسِّحر جبَّارَ الوحوش
لركبة الولد الحبيب.»

الحكاية

على ضفة النهر العظيم، الذي هطلت عليه منذ قليل أمطارٌ غزيرة ففاض الماء على شاطئَيه، رقد المراكبيُّ العجوز في كوخه الصغير مُضنًى من عناء النهار، واستسلم للنوم. في منتصف الليل، أيقظته أصواتٌ مُرتفعة، سمع مسافرين يُنادون عليه يريدون أن يعبُروا إلى الشاطئ الآخر. عندما دلف من باب الكوخ رأى نورَين عظيمين تائهين،[1] يرفَّان فوق القارب المُوثَق، أكدا له أنهما في عجلةٍ شديدة، وأنهما يريدان أن يكونا على الشاطئ الآخر في أسرع وقت ممكن. لم يتردَّد العجوز، فدفع قاربه، وراح بمهارته المعهودة يشقُّ به عُرْض النهر، بينما طفق المسافران الغريبان يُوشوِشان معًا بلغةٍ مجهولةٍ سريعة الإيقاع، وينفجران من حين إلى حين ضاحكين بصوتٍ عالٍ، ويقفزان مرة على جدران القارب ومقاعده وأخرى على أرضه.

هتف العجوز: «القارب يترنح، وإذا لم تسكنا إلى الهدوء فقد ينقلب في الماء! اجلسا أيها النوران!»

انفجرا ضاحكَين بصوتٍ عالٍ من هذا المَطلب الجريء، وأخذا يسخران بالعجوز، وزادت ضوضاؤهما عمَّا قبل، وتحمَّل «النوتي» العجوز هذرهما صابرًا، وما هو إلا قليل حتى رسا بقاربه على الشاطئ الآخر.

[1] Irrlichter أنوارٌ ضعيفة على هيئة شعلات ساكنة، تُرى فوق الأراضي التي تكثر فيها المُستنقَعات والأدغال والمراعي الرطبة، ويُظَن أنها تنشأ عن الالتهاب الذاتي لغاز الميثان الموجود في هذه الجهات. وقد كانت هذه الظاهرة سببًا في إطلاق الكلمة في الخرافات الشعبية على بعض الأرواح الصغيرة العابثة، التي تُضلل المسافرين، وتقفز فوق ظهورهم. (م)

«خُذ هذا أجرًا على تعبك!» بهذا ناداه المسافران، ونفضا أنفسهما فسقطت قِطعٌ ذهبيةٌ عديدةٌ لامعة على أرض القارب المُبتلَّة. وهتف العجوز:

«بحق السماء، ماذا تصنعان؟ إنكما تصبَّان عليَّ أعظم الشقاء. فلو أن قطعةً ذهبية سقطت في الماء، لارتفعت أمواج النهر الذي لا يُطيق هذا المعدن ارتفاعًا مُفزِعًا، فابتلعت السفينة وابتلعتني معها. ومن يدري عندئذٍ ماذا يمكن أن يقع لكما؟! أَعِيدا نقودكما إلى مكانها!»

فأجابه النوران التائهان قائلَين: «لا نستطيع أن نردَّ شيئًا نفضناه عن أنفسنا.»

قال العجوز وهو ينحني ليجمع القِطع الذهبية في قبعته: «إذن فأْذَنا لي أن أُفتِّش عنها، وأحملها إلى الشاطئ، وأدفنها هناك.»

كانا النوران التائهان قد قفزا من القارب، وناداهما العجوز: «أين إذن أجري؟»

هتف به النوران: «من لا يقبَل ذهبًا فليعمل بلا أجر!»

– «فلتعلَما أن من الممكن دفع أجرتي من ثمار الأرض.»

– «من ثمار الأرض؟ إننا نزدريها، ولم نذُق لها طعمًا أبدًا.»

– «ومع ذلك فلا أستطيع أن أترككما حتى تعِدَاني بأن تُحضِرا لي ثلاثة رءوس قرنبيط، وثلاث خرشوفات، وثلاث بصلات كبيرة.»

أراد النوران التائهان أن يتسللا في مرحٍ مُبتعدين، غير أنهما أحسَّا وكأن شيئًا مجهولًا يُقيدهما بالأرض على نحوٍ عجيب. كان إحساسًا شديد الإيلام لم يشعرا به من قبل. وعدا العجوز بأن يُحقِّقا له طلبه في أقرب فرصة تسنح لهما، فتركهما ودفع قاربه في اليم. كان قد ابتعد عنهما بمسافةٍ كبيرة حينناديا عليه: «أيها العجوز! اسمع، أيها العجوز! لقد نسينا أهم شيء!»

ولكنه كان قد ابتعد ولم يسمع شيئًا. كان قد ترك قاربه ينحدر بحذاء ضفة النهر نفسها، متَّجِهًا إلى ناحيةٍ جبلية لا يصل إليها الماء أبدًا؛ ليدفن الذهب الخطر فيها.

وهناك بين الصخور العالية عثر على حفرةٍ هائلة، ألقى بالقِطع الذهبية فيها، وقفل راجعًا إلى كوخه.

في هذه الحفرة كانت تسكن الحية الجميلة الخضراء التي استيقظت من نومها على رنين القِطع الذهبية، لم تكَد تقع عيناها على القِطع البرَّاقة، حتى هجمت عليها، فابتلعتها في نهمٍ عظيم، وراحت تُفتِّش بعناية عن كل قطعة تناثرت في الدغل أو بين شقوق الصخور.

لم تكَد القِطع الذهبية تستقرُّ في جوفها حتى شعرت شعورًا لذيذًا مُنعِشًا بالذهب يذوب في أحشائها، وينتشر في بقية جسدها، ولاحظت والبهجة العظيمة تغمرها كيف

أنها أصبحت شفَّافة ولامعة. كانت طالما قد سمعت من يؤكِّد لها أن هذه الظاهرة ممكنة الحدوث، غير أن الشك كان يُساوِرها فيما إذا كان هذا النور سيبقى على لمعانه، فدفعها حب الاستطلاع والرغبة في تأمين مستقبلها إلى أن تخرج من الصخرة؛ لكي تُفتِّش عمَّن عساه أن يكون قد نثر الذهب الجميل في مسكنها. لم تجد أحدًا، وزاد من نشوتها أن تُعجَب بنفسها وهي تزحف بين الحشائش والأعشاب، وأن تزدهر بالنور الساحر الرقيق الذي ينتشر منها فيُضيء العشب اليانع. بدَت الأوراق كلها وكأنها من زُمرُّد، والورود جميعًا ظهرت صافيةً في أبدع صورة. عبثًا راحت تجُوب البرِّية المُوحِشة، ومع ذلك فقد ازداد رجاؤها حين وصلت إلى الأرض المستوية، وأبصرت نورًا شبيهًا بنورها يلمع من بعيد، وهتفت صائحةً وهي تتَّجه نحوه: «ها أنا أجد أخيرًا من يُشبِهني!» لم تكترث بالمَشقة التي تُعانيها من الزحف في المُستنقَع وبين أعواد الغاب الطويلة، فمع أنها كانت تعشق الحياة فوق أعشاب الجبل وبين شقوق الصخور العالية على كل حياة سواها، ومع أنها كانت تستطيب طعم الأعشاب ذات التوابل، وتروي عطشها في العادة من قطرات الندى الرقيق، ومن ماء النبع المُنعِش، فإنها لم تكن لتتردَّد عن الإقدام على أية مهمة تُلقى عليها من أجل الذهب الجميل، ومن أجل النور الباهر.

انتهى بها المطاف وقد أضناها التعب إلى مُستنقَع، وكان النوران التائهان يلعبان فوقه جيئة وذهابًا. اندفعت بسرعة نحوهما وحيَّتهما، وأسعدها أن تجد أمامها مثل هذَين السيدين اللطيفين من أقاربها. أخذ النوران يرفَّان حولها مُداعبين، ويقفزان فوقها، ويضحكان على طريقتهما. قالا لها: «يا عمة، إذا كنت من أصحاب الخط الأفقي، فلا يعني هذا شيئًا على الإطلاق، حقًّا إن قرابتنا من ناحية المظهر واحدة، انظري إلينا — وهنا ضحَّت الشعلتان بعرضهما كله فمدًّا في طولهما، وزادا من حدة أطرافهما بقدر طاقتهما — كم يُناسبنا هذا الطول الرشيق، نحن السادة أصحاب الخط العمودي! لا تعتبي علينا أيتها الصديقة، ولا تظنِّي بنا السوء، ولكن أية عائلة يُمكِنها أن تتباهى مثلنا بذلك؟ منذ أن وُجدت الأنوار التائهة لم يجلس من بينها نورٌ واحد، ولم يخلد إلى الرقاد.»

شعرت الحية بالضِّيق الشديد في حضور هؤلاء الأقرباء، فكلما حاولت أن ترفع رأسها إلى أقصى ما تريد، أحسَّت بأنها لا بد أن تعود فتحنيه إلى الأرض لكي تستطيع أن تتحرك من مكانها، وإذا كانت قد نعمت بالحياة وسعدت بها كل السعادة عندما كانت تعيش في الدغل المُظلِم، فقد بدا لها أن بريقها يخفُت في كل لحظة أمام أولاد العم هؤلاء، بل لقد خشيت أن ينطفئ في نهاية الأمر انطفاءً تامًّا.

وأسرعت في حيرتها هذه تسأل إن كان السيدان يستطيعان أن يُخبِراها من أين جاء الذهب البرَّاق الذي سقط منذ قليل في حفرة الصخر، وأضافت أنها تُخمِّن أنه مطرٌ ذهبي تساقط مباشرة من السماء. ضحك النوران التائهان، ونفضا نفسَيهما، فتساقط مقدارٌ عظيم من القِطع الذهبية راح يقفز حولهما.

أسرعت الحية نحوها تريد أن تبتلعها، فقال السادة المهذَّبون: «لتَهنَئي بطعمها يا عمة، في استطاعتنا أن نُقدِّم لك المزيد.»

وعاد النوران التائهان ينفضان نفسَيهما مراتٍ مُتواليةً وبسرعةٍ خاطفة، حتى كاد يتعذَّر على الحية أن تزدرد الطعام الثمين بنفس السرعة. بدأ نورها ينمو نموًّا ملحوظًا، فلمعت لمعانًا باهرًا حقًّا، بينما ذبل النوران التائهان، وتضاءل بريقهما بغير أن يفقدا شيئًا ولو قليلًا من مرحهما واعتدال مزاجهما.

«سأظل مُمتنَّة لكما إلى الأبد.» قالت الحية هذه الكلمات بعد أن استعادت أنفاسها إثر الأكلة الشهيَّة، واستطردت تقول: «اطلبا منِّي ما تشاءان! كل ما أملكه أريد أن أُقدِّمه لكما.» هتف النوران التائهان: «حسنٌ جدًّا! قولي؛ أين تسكن الزنبقة الحسناء؟ سِيري بنا بأسرع ما يمكن إلى قصر الزنبقة الحسناء وحديقتها. إن اشتياقنا إلى أن نُلقي بأنفسنا عند أقدامها يكاد يُهلِكنا.»

أجابت الحية بتنهيدةٍ عميقة: «لست أستطيع أن أُقدِّم لكما هذه الخدمة في الحال؛ إن الزنبقة الحسناء تسكن على الجانب الآخر من الماء.»

– «على الجانب الآخر من الماء؟ وندع العجوز يعبُر بنا النهر في هذه الليلة العاصفة؟ ما أفظع النهر الذي يُفرِّق الآن بيننا! أمَا من وسيلة لنُنادي بها العجوز من جديد؟»

ردَّت الحية قائلة: «سوف تُضيعان جهدكما سُدًى؛ إذ إنكما ولو قابلتماه على هذه الضفة، فلن يأخذكما معه؛ لقد سُمح له أن ينقل كل أحد إلى هذا الشاطئ، ولكن حُرِّم عليه أن ينقل أحدًا إلى الشاطئ الآخر.»

– «إذن فقد حبسْنا أنفُسنا بأيدينا! أمَا من وسيلة نعبُر بها الماء؟»

– «بل هناك وسائل كثيرة، ولكن ليس في هذه اللحظة. أنا نفسي أستطيع أن أنقل السادة إلى الضفة الأخرى، ولكنني لن أقدر على ذلك قبل حلول ساعة الظهيرة.»

– «هذا وقت لا نميل إلى السفر فيه.»

– «إذن ففي استطاعتكما إذا حل المساء أن تعبُرا النهر فوق ظل العملاق!»

– «كيف ذلك؟»

– «إن العملاق العظيم، الذي يسكن غير بعيد من هنا، لا يقدر بجسده على شيء. إن يدَيه لا تستطيعان أن ترفعا عود قش، وكتفَيه لا تقويان على حمل حزمة أرز، ولكن ظله يستطيع أن يفعل الكثير، بل يستطيع أن يفعل كل شيء؛ لذلك كان أشدَّ ما يكون قوة عند شروق الشمس وغروبها، وما على الإنسان إذا حل المساء إلا أن يجلس على رقبة ظله، وما هو إلا أن يتَّجه العملاق في رفقٍ ناحية الشاطئ؛ وبذلك ينقل الظل المسافر إلى الضفة الأخرى. أما إذا أردتما أن تحضرا في وقت الظهيرة عند ذلك الجانب من الغابة، حيث يلتحم الدغل بالشاطئ، فإنني أستطيع عندئذٍ أن أنقلكما إلى الشاطئ الآخر، وأن أُقدِّمكما إلى الزنبقة الحسناء. أما إذا كنتما تُشفِقان على أنفسكما من وهج الظهيرة، فما عليكما إلا أن تزورا العملاق في ذلك الخليج الصخري عندما يقترب المساء، ولا شك أنه سيُحسِن ضيافتكما.»

وبانحناءةٍ طفيفة ابتعد السيدان الشابان، وسرَّ الحيةَ أن تتخلص منهما؛ لكي يُتاح لها من ناحيةٍ أن تبتهج بنورها، وتُشبِع من ناحيةٍ أخرى رغبةً عذَّبتها منذ أمد طويل عذابًا غريبًا.

كانت قد اكتشفت اكتشافًا عجيبًا في موضع من الحُفَر الصخرية، التي اعتادت من حين لآخر أن تزحف فيها، فعلى الرغم من أنها كانت تضطرُّ إلى الزحف خلال هذه الحُفَر بغير نور يهديها، فقد كان في استطاعتها أن تُميز بإحساسها بين الأشياء التي تُقابلها. كان من عادتها ألا تجد حيثما ذهبت غير مُنتَجات طبيعية غير مُنتظمة، فحينًا تتلوَّى لتنفُذ بين أطراف بلورات عظيمة مُدبَّبة، وحينًا تشعر بزوايا الفضة المُترامية وشعراتها، فتأخذ معها هذا الحجر الثمين أو ذاك إلى النور. بيْدَ أنها كانت والدهشة العظيمة تستولي عليها قد أحسَّت في موضعٍ صخري مُغلَق من كل ناحية، بأشياء تشي بيدِ الإنسان المُصوِّرة؛ جدرانٌ ملساء لا تستطيع أن تتسلق عليها، حوافٌّ حادَّةٌ مُنتظمة، أعمدةٌ بديعة الصُّنع، وأشكالٌ بشرية أثارت فيها أشد العَجب، ولفَّت جسدها مرارًا حولها، واعتقدت أنها من نحاس أو مرمرٍ مصقولٍ بديع الصقل.

اشتهت أن تستجمع كل هذه التجارب مرةً أخرى بحاسة العين، فتتأكَّد ممَّا لم يتيسر لها أن تعرفه إلا بالتخمين. اعتقدت أنها تستطيع الآن بالضوء الذي يشعُّ منها أن تُنير هذا القبو السفلي العجيب، وداعَبها الأمل المُفاجئ في أن تتعرَّف على هذه الأشياء الغريبة تعرفًا تامًّا. انطلقت تزحف على طريقتها المألوفة، وسرعان ما عثرت على الشق الذي تعوَّدت أن تتسلل منه إلى المَعبد المقدَّس.

لما وصلت إلى المكان تلفَّتت حولها مدفوعةً بحب الاستطلاع. ومع أن الضوء المُنبعِث منها لم يكفِ لإنارة كل الأشياء المُنتشرة حولها، فقد استطاعت أن ترى الأشياء القريبة منها رؤيةً واضحة.

تطلَّعت في رهبة ودهشة إلى فجوةٍ تلمع فوقها، نُصِب فيها تمثال ملك جليل من الذهب الخالص.

كان التمثال يزيد في حجمه على حجم الإنسان الطبيعي، ولكن بدا لها من ناحية الشكل أقربَ إلى أن يكون لرجلٍ صغير السن منه لرجلٍ ضخمٍ عظيم. كان يلفع جسمَه المُتناسق مِعطفٌ بسيط، وتشدُّ شعرَه باقةٌ من ورق البلُّوط.

لم تكَد الحية تُبصِر هذا التمثال الجليل، حتى فتح الملك فمه بالكلام وسأل: «من أين تأتين؟»

أجابت الحية: «من الحُفَر التي يسكنها الذهب.»

سأل الملك: «أي شيء أروع من الذهب؟»

فأجابت الحية: «النور.»

عاد الملك يسأل: «أي شيء أعذب من النور؟»

فردَّت الحية: «الحوار.»

كانت في خلال هذا الحديث قد ألقَت نظرةً جانبية على الفجوة القريبة، فأبصرت صورةً أخرى رائعة. كان يجلس في هذه الفجوة ملكٌ فضيٌّ ذو قوام طويل أقرب إلى النحول، وكان يُغطي جسدَه رداءٌ مُزركَش وتاج وحزام وصولجان مُزيَّن بالأحجار الثمينة، وكان يظهر على وجهه مرح الكبرياء، وبدا عليه أنه يريد الكلام حين لمع على حين فجأة في الجدار المرمري عرقٌ كان يتخلَّله بلونٍ مُعتِم، وأرسل في المَعبد كله نورًا بهيجًا. أبصرت الحية الملك الثالث على هذا النور، وكان ملكًا من نحاس في هيئةٍ تدلُّ على البأس والسلطان، استند على عجُزه، وزيَّنت هامتَه باقةٌ من الغار، وبدا أشبه بصخر منه بإنسان. أرادت الحية أن تلتفت إلى الملك الرابع، وكان يبدو على مسافةٍ شديدة البُعد عنها، عندما انشقَّ الجدار، وانتفض العرق المُضيء كالبرق الخاطف ثم اختفى.

لفت انتباهَ الحية رجلٌ متوسِّط الحجم يخرج من الجدار.

كان يرتدي ملابس فلَّاح، ويحمل في يده مِصباحًا صغيرًا يَطيب للمرء أن يتطلَّع إلى شعلته الساكنة، التي تغمر بنورها على نحوٍ مُدهِش جوانبَ المَعبد الكنسي كله، دون أن تُلقي حولها ظلًّا واحدًا.

سأل الملك الذهبي: «لِمَ أتيتَ وعندنا نور؟»

– «تعلَمون أنه لا يجوز لي أن أُنِير المُعتِم!»

وسأل الملك الفضي: «هل تنتهي دولتي؟»

فردَّ العجوز: «في وقتٍ مُتأخر أو لن تنتهي أبدًا.»

وشرع الملك النحاسي يسأل في صوتٍ قوي: «متى أقف على قدمي؟»

أجاب العجوز: «قريبًا.»

عاد الملك يسأل: «مع من ينبغي عليَّ أن أتَّحد؟»

قال العجوز: «مع إخوتك الكبار.»

سأل الملك: «وماذا سيكون مصير الأخ الأصغر؟»

قال العجوز: «سوف يجلس.»

هتف الملك الرابع في صوتٍ خشن: «لست مُتعَبًا.»

بينما كان هؤلاء يتحدثون تسلَّلت الحية في رفق، وراحت تتجوَّل في جنَبات المَعبد، فتأمَّلت كل شيء، وأخذت تتطلَّع إلى الملك الرابع عن كثب. كان يقف مُستندًا إلى أحد الأعمدة، وكانت هيئته الشامخة أقرب إلى الفظاظة منها إلى الجمال، غير أنه كان عسيرًا على المرء أن يُميز المعدن الذي صُبَّ منه التمثال.

حتى إذا تأمَّلته العين تأملًا دقيقًا، تبيَّن أنه خليط من المعادن الثلاثة التي صُبَّ منها إخوته.

ولكن يبدو أن هذه المعادن الثلاثة لم تذُب مع بعضها تمامًا عندَ صبِّ التمثال، فتخلَّلت العروقَ الذهبية والفضية كتلةٌ من المعدن الخام على غير انتظام؛ ممَّا جعل منظر التمثال لا تستريح له العين.

عندئذٍ سأل الملك الذهبي الرجل: «كم من الأسرار تعرف؟»

فأجاب العجوز: «ثلاثة.»

سأله الملك الفضي: «وأيها أهمُّ؟»

فأجاب العجوز: «السر المكشوف.»

سأل الملك النحاسي: «وهل تكشف لنا نحن أيضًا عنه؟»

قال العجوز: «بمجرد أن أعرف الرابع.»

فدمدم الملك المركَّب من معادن مُختلطة كأنه يُكلِّم نفسه: «وما شأني أنا بهذا؟!»

قالت الحية: «أنا أعرف السر الرابع.»

واقتربت من العجوز، ووشوشت شيئًا في أُذنه. هتف العجوز بصوتٍ رهيب: «لقد آن الأوان.» وتردَّدت أصداء الصوت في المَعبد، ورنَّت التماثيل المعدنية، وفي لحظةٍ غاص العجوز ناحية الغرب، والحية ناحية الشرق، وأسرع كلاهما يعبُر الهاوية الصخرية لا يلوي على شيء.

امتلأت كل الدروب التي جابها العجوز في لمح البصر بالذهب؛ ذلك أن مِصباحه كان يمتلك خاصيةً عجيبة تجعله يُحوِّل كل الأحجار إلى ذهب، وكل خشب إلى فضة، والحيوانات الميتة إلى أحجارٍ ثمينة، كما تجعله يُحِيل جميع المعادن إلى تراب، وكان لا بد للمصباح، لكي يفعل فِعله هذا، من أن ينفرد وحده بالإنارة، فإذا اشتعل نورٌ آخر بجواره، لم يصدر عنه سوى ظل جميل لامع، فيُشيع البهجة والانتعاش دائمًا في كل حي.

دخل العجوز كوخه الذي بناه فوق الجبل، ووجد امرأته في همٍّ شديد. كانت تجلس باكيةً أمام المَوقد، عاجزةً عن أن تدخل الطمأنينة إلى نفسها. هتفت بزوجها: «ما أشقاني! ما كنتُ اليوم أريد أن أتركك تُغادر الكوخ!»

سألها العجوز في هدوءٍ تام: «ماذا جرى إذن؟»

قالت وهي تنشِج بالبكاء: «ما كدتَ تخرج حتى جاء سائحان شرِسا الطبع، فوقفا أمام الباب، وبغير حذر منِّي تركتُهما يدخلان؛ فقد بديا لي سيدَين مُهذَّبين لطيفين، وكانا يتلفَّعان بهالتَين خفيفتين؛ ممَّا يحمل على الظن بأنهما نوران تائهان، وما كادا يدخلان البيت حتى شرعا يتملَّقاني بألفاظٍ وقحة، ويُبالغان في إلحاحهما عليَّ حتى لأخجل من مجرد التفكير فيهما.»

قال الرجل وهو يبتسم: «لا شك أن السيدَين أرادا أن يمزحا معك؛ فقد كان عليهما مراعاةً لسنِّك أن يُعاملاك بأدب كما يقضي العُرف بذلك.»

هتفت المرأة قائلة: «ماذا أيها العجوز؟! أيها العجوز! هل عليَّ دائمًا أن أسمعك تتحدث عن عمري؟ وكم يبلغ عمري؟! ذلك الأدب الذي يقضي به العُرف! إنني أعرف ما أعرف. تلفَّتْ حولك فحسب؛ لترى كيف تبدو الجدران. تطلَّعْ إلى الأحجار القديمة، التي لم أرَها منذ مائة عام، كل ما كان عليها من ذهب قد لعقاه، ولا يُمكِنك أن تُصدِّق بأي سرعة خاطفة فعلا ذلك، وأكَّدا دائمًا أن طعمه ألذ بكثير من الذهب المعروف. وبعد أن مسحا ما على الجدران، بدَت عليهما الغِبطة الشديدة. والحق أنهما أصبحا في وقتٍ قصير أكبرَ بكثير ممَّا كانا عليه، وأعرضَ وأشدَّ بريقًا، ثم إذا بهما يعودان إلى مُداعبتي، فيتمسَّحان بي، ويُلقِّباني ملكتهما، وينفضان أنفُسهما، فيتساقط قدرٌ كبير من الذهب، وما زِلتَ ترى

كيف يلتمع نورهما تحت الأريكة، ولكن وا أسفاه؛ الْتهَم كلبُنا الصغير السمين بعضَ قِطع الذهب، وها أنت تراه يرقد ميتًا عند المَوقد. يا للحيوان المسكين! ما أبعدَ السرورَ عني! إنني لم أتبيَّن ذلك إلا بعد انصرافهما، ولو عرفت لما وعدتهما بتسديد دينهما للمراكبي.»

سأل العجوز: «بأي شيء يَدينان له؟»

قالت المرأة: «بثلاثة رءوس قرنبيط، وثلاث خرشوفات، وثلاث بصلات. لقد وعدتُهما إذا أصبح الصباح أن أحملها جميعًا إلى النهر.»

قال العجوز: «تستطيعين أن تصنعي فيهما هذا الجميل؛ فسوف يردَّانه لنا في المستقبل.»

– «لا أدري إن كانا سيُقدِّمان لنا خدماتهما، ولكنني وعدتُهما وأقسمتُ أن أبرَّ بوعدي.»

كانت نار المَوقد في أثناء ذلك قد خمدت، فأهال عليها العجوز كثيرًا من الرماد، وجمع القِطع الذهبية جانبًا، وإذا بمصباحه الصغير يعود فيلمع من نفسه أجمل لمعان، والجدران تكسوها طبقة من الذهب، والكلب الصغير السمين يتحوَّل إلى أجمل حجر من العقيق، يستحيل أن يتصوَّره الإنسان، وتبدَّلت الألوان على الحجر الثمين بين اللون البُنِّي واللون الأسود، فجعلت منه تحفةً فنيةً نادرة الوجود.

قال العجوز: «خُذي سلَّتك، وضَعِي حجر العقيق فيها، ثم خُذي رءوس القرنبيط الثلاثة، والخرشوفات الثلاث، والبصلات الثلاث، فضَعِيها حولها، واحملي الجميع إلى النهر! فإذا جاء وقت الظهيرة، فاجعلي الحية تحملك إلى الشاطئ الآخر، وزُوري الزنبقة الحسناء، وأعطيها حجر العقيق! إنها ستُعيده حيًّا! مثلما تُميت بلمستها كلَّ حي! وسوف تجد فيه صاحبًا غاليًا. قُولي لها: إن عليها ألا تبتئس. إن يوم خلاصها قد اقترب، والشقاء العظيم تستطيع أن تعُدَّه سعادةً عظيمة؛ فقد آن الأوان.»

عند طلوع النهار تناولت العجوز سلَّتها، ومضت في طريقها. كانت الشمس المُشرِقة تسطع على صفحة النهر الذي كان يلمع من بعيد. مضت العجوز في خُطًا متَّئدة؛ فقد كانت السلة تضغط على رأسها ولو لم يكن حجر العقيق هو الذي يرزح بثقله عليها. لم تُحسَّ بما كانت تحمله من كائناتٍ ميتة، بل إن السلة كانت ترتفع إلى أعلى وتطير فوق رأسها، ولكن حمل خُضَر طازجة أو حيوان صغير حي كان ثقيلًا عليها ثقلًا شديدًا.

كانت قد مضَت في طريقها بعضَ الوقت وهي تشعر بالضِّيق والملل، وعلى حين فجأة وقفَت ساكنةً مفزوعة؛ فقد كادت تدوس على ظل العملاق، الذي كان يتمدَّد على الأرض، ويكاد يصل إليها.

ثم وقع بصرها على العملاق الجبار، الذي كان يخرج من الماء بعد أن استحمَّ في النهر، وتحيَّرت كيف تتحاشاه. لم يكَد يراها حتى بدأ يُحيِّيها في مرح، ثم امتدَّت يدا ظله على الفور إلى السلة، فأخرجتا في خفة ومهارة رأسَ قرنبيط وخرشوفةً وبصلة، وناولاها إلى فم العملاق الذي تابَع عندئذٍ رحلتَه النهرية، وأفسح للمرأة الطريق.

أخذت تسأل نفسها إن كان من الأفضل أن تعُود أدراجَها فتُحضِر بدل القِطع الناقصة من حديقتها، ومضَت بين هذه الشكوك التي تُساوِرها إلى الأمام، فسرعان ما بلغت ضفة النهر. لبِثَت طويلًا تنتظر المراكبي، حتى لمحته أخيرًا يعبُر النهر ومعه مسافرٌ عجيب، ونزل من المركب شابٌّ نبيلٌ جميل الطلعة، لم تكَد تُشبِع عينَيها من النظر إليه.

نادى المراكبي العجوز: «ماذا تُحضِرين معك؟» أجابت العجوز وهي تشير إلى بضاعتها: «إنها الخضراوات التي تدين لكم بها الأنوار التائهة.»

لما وجد العجوز من كل صنف قطعتَين فحسب، استولى عليه الضِّيق، وأكَّد لها أنه لا يستطيع أن يقبَلها. وراحت العجوز تتوسَّل إليه في حرارة، وتصف له كيف أنها لا تستطيع أن تعُود على الفور إلى البيت، وأنه يشقُّ عليها أن تقطع الطريق مرةً أخرى والحمل الثقيل يرزح فوق رأسها. بقي العجوز مُصرًّا على رفضه، وأخذ يؤكِّد لها أن الأمر ليس بيده قائلًا: «عليَّ أن أجمع نصيبي المُستحَقَّ لي وأتركه تسع ساعات، ولا يصحُّ لي أن أقبَل شيئًا حتى أُلقي للنهر بثلثه.» بعدَ أخذٍ وردٍّ طويلَين قال العجوز أخيرًا: «ما زالت هناك وسيلةٌ واحدة. إذا تعهَّدت للنهر، وقبِلتِ أن تعترفي له بدينك، فإني على استعداد لأن آخذ القِطع الستة، ولكن هذا لا يخلو من خطر.»

– «وإذا حافظت على كلمتي، فهل يمنع ذلك الخطر عني؟!»

استطرد العجوز قائلًا: «لن تتعرَّضي لأقل شيء. اغمسي يدك في النهر، واقطعي عهدًا بأن تُوفي دينك في خلال أربع وعشرين ساعة.»

فعلت العجوز بما أشار عليها، ولكن كم كانت دهشتها حين جذبت يدها في الماء فألفتها سوداء بلون الفحم! أخذت تُوبِّخ العجوز توبيخًا مرًّا، وتؤكِّد أن يدَيها كانتا دائمًا أجمل ما فيها، وأنها على الرغم من العمل الشاق قد عرفت دائمًا كيف تُحافظ على بياض هذَين العضوين النبيلين ورقتهما. تطلَّعت إلى اليد في ضِيقٍ شديد، وهتفت في يأسٍ مرير: «إن هذا لأسوأ! أرى أنها تقلصَّت. لقد صارت أصغر بكثيرٍ من اليد الأخرى.»

قال العجوز: «إنها الآن تبدو كذلك فحسب، ولكنك إذا لم تُحافظي على كلمتك، فقد يتحقَّق ما تخشين منه، وتتقلَّص اليد شيئًا فشيئًا حتى تختفي في النهاية تمامًا، بدون أن

تُحرَمي من القدرة على استعمالها. سوف يكون في استطاعتك أن تقضي بها كل حوائجك، ولكن لن يراها أحد.» قالت العجوز: «وددتُ لو عجزتُ عن استعمالها ولم يلحظ أحد عليها شيئًا. ومع هذا فلا أهمية لذلك. سوف أُحافظ على عهدي لكي أتخلَّص سريعًا من هذا الجلد الأسود وهذا الهم الثقيل.» وأسرعت تتأمَّل السلة التي ارتفعت من تلقاء نفسها فوق قمة رأسها، وطارت حرة في الفضاء، وعجَّلت من سيرها لتلحق بالشاب الذي كان يمضي على الشاطئ وديعًا تائهًا في أفكاره. كانت هيئته الرائعة وحُلَّته العجيبة قد تركا في نفسها انطباعًا عميقًا.

كان يُغطِّي صدرَه درعٌ برَّاق تتحرك من خلاله كلُّ أجزاء جسده الجميل، ويلفع كتفَيه مِعطفٌ قرمزي، وعلى رأسه العاري تنمو خصلاتٌ جميلة من الشعر البُنِّي، وكانت أشعة الشمس تلفح وجهه النقي الصبوح، كما تلفح قدمَيه المُتناسقتين. مضى يسير في اتزان على الرمل الساخن بقدمَيه العاريتين، وبدا كأن ألمًا عميقًا يُقيِّد كل انطباعاته الظاهرة ويُخيِّم عليها.

حاولت العجوز الثرثارة أن تجذبه للحديث، غير أن كلماته القليلة كانت تصدُّها دائمًا عنه، حتى يئست أخيرًا، على الرغم من عينَيه الجميلتين، من محاولة الحديث بغير طائل، فودَّعته قائلة: «إنك يا سيدي تسير ببطءٍ شديد، ولا يجوز لي أن أترك هذه اللحظة تفلتُ منِّي حتى أعبُر النهر على ظهر الحية الخضراء، وأُقدِّم للزنبقة الحسناء الهدية الرائعة التي حمَّلني لها زوجي.»

ألقت هذه الكلمات وانطلقت مُسرِعة، ولم تكَد تصل إلى سمع الشاب الجميل حتى أسرع يُلاحقها وهو يهتف: «هل تذهبين إلى الزنبقة الحسناء؟ إذن فنحن نسير على دربٍ واحد. ما هذه الهدية التي تحملينها لها؟»

ردَّت المرأة قائلة: «لا يليق بك يا سيدي، بعدما رفضتَ الإجابة على أسئلتي رفضًا قاطعًا، أن تُحاول التعرف على أسراري بهذا الإصرار. فإن قبِلتَ أن تُبادلني سرًّا بسرٍّ، وكشفتَ لي عن أقدار حياتك، فلن أُخفي عليك قصتي وقصة هديتي.» وكان أن اتفقا سريعًا، فروَت له المرأة حكايتها، وأخبرته بحكاية الكلب، وتركته يتأمَّل الهدية الرائعة.

مد الشاب يده، فتناول التحفة الطبيعية من السلة، وأخذ الكلب الذي بدا كأنه استسلم لنومٍ هادئٍ وديع بين ذراعَيه، وهتف قائلًا: «أيها الحيوان السعيد! سوف تلمِسك يداها، وسوف تُعِيدان إليك الحياة. أما الأحياء فإنهم يهربون منها خشيةَ أن يُصيبهم قدرٌ حزين، ولكن أي حزن تراني أتحدَّث عنه؟ أليس أدْعَى للهم والحزن أن يُصاب الإنسان بالشلل

إذا حضر أمامها، من أن يموت بلمسة من يدها؟» ثم التفت إلى العجوز قائلًا: «انظري إليَّ. أي تعاسة كُتِب عليَّ أن أحتملها وأنا في مثل هذه السن؟! هذا الدرع الذي كنت أحمله على صدري وأُحارِب به في شرف، وهذا المِعطف القرمزي الذي أردتُ بحُكمي الرشيد أن أكون جديرًا به، لقد تركهما لي القدر عبئًا ثقيلًا أحمله بغير داعٍ، وحليةً سخيفة لا يلتفت إليها أحد. التاج والصولجان والسيف ذهبتْ جميعًا، وأنا بعدُ عارٍ ومُحتاجٌ مثل سواي من أبناء الأرض. هكذا تصنع عيناها الجميلتان الزرقاوان، فتسلبان كل كائن حي طاقةَ الحياة، وتجعلان كل من لم تلمِسه يدها لمسة الموت يشعر كأنه استحال إلى شبحٍ حي.»

هكذا راح يُرسِل شكواه، فلم يُشبِع بحالٍ رغبةَ العجوز التي لم يكن يهمُّها أن تخبُر باطنه بقدر ما كانت تريد أن تعرف ظاهره. لم تعرف منه اسم أبيه ولا اسم مملكته. مسح بيده على الكلب المُتحجر، الذي بدا كأن أشعة الشمس وصدر الشاب الدافئ قد غمراه بالدفء، وبعثا فيه الحياة. أخذ يسأل ويُطيل في السؤال عن الرجل ذي المِصباح، وعن آثار النور المقدَّس، وبدا كأنه يعدُ نفسه من وراء ذلك كله خيرًا كثيرًا يستعين به على حاله البائسة.

وبينما هما مُسترسِلان في الحديث، إذا بهما يُبصِران الجسر من بعيد يصل بين الشاطئَين في هيئة قوس رائع الجمال، يلتمع في أبهى صورة في وهج الشمس. ملكتْهما الدهشة؛ فلم يسبق لهما رؤية هذا البناء على هذه الصورة من الحسن والروعة، وهتف الأمير قائلًا: «ماذا؟ ألم يكن على درجةٍ كافية من الجمال عندما مثل أمام أعيُننا كأنه بُني من حجر اليَشْب والحجر اليماني الأخضر؟ ألا يجفُل الإنسان خوفًا من أن يخطو بقدمَيه فوقه وهو يبدو كأنما رُكِّب من الزُّمرُّد والزبرجد والياقوت في تنوُّعٍ فتَّان؟»

لم يكُن أحد منهما يعلَم بما جرى للحية. لقد كانت هي التي تنصب نفسها في كل يوم عند الظهيرة فوق النهر، وتظهر في هيئة جسر جريء البُنيان. تقدَّم المسافران في إجلال ورهبة، فعبَراه صامتَين.

ما كادا يبلغان الشاطئ الآخر حتى بدأ الجسر يخفق ويتحرك، وما هي إلا برهةٌ قصيرة حتى لامس سطح الماء، وبرزت الحية الخضراء في هيئتها الأصلية زاحفةً على اليابسة لتلحق بالمسافرين. ما كادا ينتهيان من تقديم الشكر إليها على سماحها لهما بعبور النهر فوق ظهرها، حتى أحسَّا بأنه لا بد أن يكون في صحبة ثلاثتهم أشخاصٌ آخرون، وإن لم يستطيعوا أن يروهم رأيَ العين. تَناهى إلى سمعهم صوتُ فحيح، ردَّت الحية عليه بفحيحٍ مثله. أصغوا بانتباه، واستطاعوا أخيرًا أن يُميزوا هذه الكلمات التي

راحت تتبادلها أصواتٌ مُشترِكة في الحديث: «سوف نبدأ بالتجوال خُفية في حديقة الزنبقة الحسناء فننظر فيها، ونرجوكما عند مطلع النهار بمجرد أن تلمحا صورتنا أن تُقدِّمانا إلى الجمال الكامل. سوف تجدانِنا عند حافَّة البحيرة العظيمة.» أجابت الحية قائلة: «ليكُن الأمر كذلك.» وضاع صوت فحيح في الهواء.

تشاوَر مسافرونا الثلاثة فيما بينهم حول النظام الذي يُمثِّلون به بين يدَي الجميلة، فمهما تعدَّد الأشخاص الذين يُمكِنهم أن يُحيطوا بها، فلم يكُن يجوز لهم إلا أن يأتوا وينصرفوا كلٌّ على حِدَة؛ حتى لا تُصيبهم آلامٌ حادَّة.

اقتربت المرأة التي تحمل الكلب الممسوخ في سلتها من الحديقة، وراحت تبحث عن ولية نعمتها التي كان من السهل عليها أن تجدها؛ فقد كانت تُغنِّي على القيثارة، والأنغام الحبيبة التي تنساب منها تبدو في شكل حلقات تطوف على سطح البحيرة الساكنة، وتُحرِّك العشب والأغصان كأنها نسماتٌ خفيفة. كانت تجلس في مكانٍ مُغلَقٍ مُخضرٍّ، في ظل مجموعة رائعة من أشجارٍ مختلفة الأشكال، يشعُّ السحر منها من جديد، فيفتنُّ بصر العجوز وسمعها وقلبها، فتدنو في نشوة منها، وتحلف بينها وبين نفسها أن الجميلة في فترة غيابها عنها لم تزِد إلا جمالًا! ولم تنتظر المرأة الطيبة، فنادت الحسناء الحبيبة من بعيدٍ مُحيِّيةً مادحة: «أي سعادة أن تراك عينا إنسان؟! أي سماء يبسطها وجودك من حولك؟! يا لسحر القيثارة في حجرك، وذراعاك تلتفَّان بها في حنان! ما أجملها وهي تبدو كأنها تشتاق إلى صدرك! وما أعذبَ رنينَها تحت لمسات أصابعك النحيلة! سعدتَ أيها الشاب ثلاث مرات، يا من قُدِّر لك أن تحتلَّ مكانها!» بهذه الكلمات ازدادت منها اقترابًا. فتحت الزنبقة الحسناء عينَيها، وتركت يدَيها تسقطان، وردَّت قائلة: «لا تُعكِّري صفوي بمديحٍ يأتي في غير أوانه، فما يزيدني قولُك إلا شعورًا بتعاستي. انظري عند قدمَيَّ ترَي طائر الكناريا المسكين يرقد ميتًا، وهو الذي طالما صاحَب أغانيَّ بأحلى النغم. كان من عادته أن يجلس على قيثارتي، وينصب قامته بحذر حتى لا يُلامِسني، واليوم وأنا أُدندِن بأغنية الصباح الهادئة، بعد أن صحوت مُنتعِشةً من النوم، وبينما مُغنِّيَّ الصغير يُرسِل ألحانه المُنسجِمة في مرح لم يُسبَق إليه، إذا بصقرٍ ينطلق من فوق رأسي، ويهرب الحيوان المسكين الصغير مفزوعًا إلى صدري، فأشعر في نفس اللحظة بالاختلاجات الأخيرة لحياته التي تُفارِقه. حقًّا لقد أصابت اللصَّ نظرتي، فترنَّح هناك وسقط صريعًا على الماء، ولكن ماذا يُفيدني الجزاء الذي لاقاه! حبيبي مات، وقبره لن يزيد إلا من ضراوة الدغل المُحزِن في حديقتي.»

هتفت المرأة وهي تُجفِّف دمعةً أثارتها حكاية الفتاة البائسة في عينَيها: «تشجَّعي أيتها الزنبقة الحسناء! تَماسَكي! زوجي العجوز كلَّفني أن أقول لك إن عليك أن تعتدلي في حزنك، وأن ترَي في الشقاء العظيم رسولًا يُنبِئ بسعادةٍ أعظم؛ ذلك أن الأوان قد آن.» واستطردت العجوز تقول: «حقًّا ما أعجبَ ما يحدث في العالم! انظري فحسب إلى يدَي؛ لترَي كيف أصبحت سوداء! حقًّا لقد صارت أصغر بكثير ممَّا كانت عليه. لا بد أن أُسرِع قبل أن تختفي تمامًا! لِمَ كان عليَّ أن أُحسِن إلى الأنوار التائهة؟ لِمَ كان عليَّ أن أُقابِل العملاق، وأن أغمس يدي في ماء النهر؟ ألا تستطيعين أن تُعطيني رأس قرنبيط وخرشوفة وبصلة؟ سوف أحملها إلى النهر، فترتدُّ يدي بيضاء كما كانت، حتى لأكاد أضعها إلى جانب يدك.»

– «قد تجدين القرنبيط والبصل، أما الخرشوف فسوف تبحثين عنه عبثًا؛ كل النباتات في بستاني الكبير لا تحمل زهرًا ولا ثمرًا، ولكن كل نبتة أقطفها وأضعها على قبر حبيب تخضرُّ على الفور وتترعرع.

كل هذه المجموعات من الأشجار، هذه الأعشاب البرِّية، هذه المروج، قد رأيتها للأسف وهي تنمو. مظلات أشجار الصنوبر هذه، سلات أشجار السرو، الكُتَل الضخمة من أشجار البلوط والزان، كلها كانت نبتاتٍ صغيرة، أثرًا مُحزِنًا غرستْه يدي في أرض كانت من قبلُ عقيمة.»

لم تنتبهِ العجوز كثيرًا لهذا الكلام؛ فقد كانت مشغولة بتأمُّل يدها التي كانت تزداد في وجود الزنبقة الجميلة سوادًا، فبدَت كأنها تتضاءل بين لحظة وأخرى. أرادت أن تتناول سلتها وتمضي مُسرِعةً حين تنبَّهتْ إلى أنها نسيت أعز شيء جاءت من أجله. مدَّت يدها فأخرجت الكلب الممسوخ من السلة، ووضعته على العشب غير بعيد من الحسناء، وخاطَبتها قائلة: «زوجي يُرسِل لك هذا التذكار. تعلَمين أنك تستطيعين أن تردِّي الحياة إلى هذا الحجر الثمين بلمسة منك. يقينًا سوف يُسعِدك الحيوان اللطيف الوفي، والهم الذي يُصيبني إذا تصوَّرت أنني سأفقده لن يُخفِّف منه إلا التفكير في أنك أنت التي ستملكينه.»

نظرت الزنبقة الحسناء إلى الحيوان اللطيف نظرةً مُبتهِجة لم تخلُ من الدهشة، وقالت: «إن علاماتٍ كثيرةً تأتي معًا، وتبعث في نفسي بعض الأمل، ولكن آهٍ! أليس ذلك مجردَ وهمٍ من أوهام طبيعتنا؛ أن نصوِّر لأنفسنا، حين يجتمع علينا الكثير من البؤس والشقاء، أن الخير قد اقترب؟

ماذا تُفيدني العلامات الكثيرة الطيِّبة؟

موت الطائر ويد الصديقة السوداء؟
والكلب الذي تحوَّل إلى حجرٍ ثمين، هل هناك ما يُشبِهه؟
ألمْ يبعث به المصباح إليَّ؟
ها أنا بعيدة عن كل متعة عذبة يحظى بها البشر.
لا أرى إلفًا لنفسي غير الحزن والاكتئاب.
آهٍ! لِمَ لا أرى المَعبد على ضفة النهر؟
آهٍ! لِمَ تأخَّر بناء الجسر؟»

استمعت المرأة الطيِّبة نافدة الصبر إلى هذا الغناء الذي صاحبته الزنبقة الحسناء بأعذب أنغام قيثارتها، وكان حريًّا أن يُرسِل النشوة إلى كل من يستمع إليه. أرادت أن تستأذن في الانصراف حين عطَّلها وصول الحية الخضراء.

كانت الحية قد سمعت الأسطُر الأخيرة من الأغنية، فأسرعت تبثُّ الثقة والاطمئنان في نفس الزنبقة الحسناء، وهتفت قائلة: «نبوءة الجسر قد تحقَّقت! ما عليك إلا أن تسألي هذه المرأة الطيِّبة، وستصف لك كيف يبدو القوس الآن في صورةٍ رائعة، ما كان من قبلُ حجرَ يشبٍ غيرَ شفَّاف، وما كان حجرًا يمانيًّا أخضر فحسب، لا ينفُذ فيه النور إلا عند الحوافي، قد صار الآن حجرًا ثمينًا شفَّافًا، ما من برلنتي بلغ هذا الصفاء، وما من زُمرُّد فاق هذه الألوان الجميلة.»

قالت الزنبقة: «أُهنِّئك على هذا، ولكن اعذريني إذا كنتُ أرى أن النبوءة لم تتحقَّق؛ فعَلى قوس الجسر المُرتفِع يستطيع المُشاة وحدهم أن يسيروا، بينما كان الوعد أن تتمكن الخيول والعربات والمسافرون من عبوره من الناحيتَين. ألمْ يرِد في النبوءة ذِكر الأعمدة العظيمة التي تنبثق من النهر نفسه؟» كانت العجوز تُثبت عينَيها على يدها، فقطعت هذا الحديث واستأذنت في الانصراف، فقالت الزنبقة الحسناء: «تريَّثي لحظةً واحدة، وخُذي طائر الكناريا المسكين معك! توسَّلي للمصباح أن يُحوِّله إلى حجر تروباس جميل. أريد أن أردَّ إليه الحياة بلمسة منِّي. أسرعي بقدر ما تستطيعين! فلن تغيب الشمس حتى يدبَّ الفساد إلى جثمان الحيوان المسكين، ويُمزِّق إلى الأبد التناسق الجميل في هيئته.» وضعت العجوز الجثمان الصغير بين أوراق الشجر الرقيقة في السلة، ومضت مُسرِعة.

استطردت الحية تصل الحديث المقطوع قائلة: «مهما يكن الأمر فقد تمَّ بناء المَعبد.»
فردَّت الحسناء قائلة: «ولكنه لا يُطلُّ على النهر.»

قالت الحية: «ما زال يسكن في أعماق الأرض. لقد رأيت الملوك وتحدَّثت معهم.»
– «ومتى يُبعَثون من رقادهم؟»
– سمعت الكلمات الكبيرة تتردَّد في المَعبد: «لقد آن الأوان.»

عمَّت السعادة الصافية وجه الحسناء، وقالت: «ها أنا أسمع اليوم الكلمات السعيدة للمرة الثانية. متى يأتي اليوم الذي أسمعها فيه للمرة الثالثة؟»

نهضت واقفةً، وإذا بغادةٍ ساحرة تدلف قادمةً من الدغل، وتأخذ القيثارة من يدها، وتبعتها غادةٌ أخرى ضمَّت الكرسي العاجي المنقوش الذي كانت تجلس عليه الحسناء، وتناولت المِخدَّة الفضية تحت ذراعَيها، ثم ظهرت ثالثةٌ كانت تحمل في يدها مِظلَّةً مُطرَّزة باللؤلؤ، وبدا عليها كأنها تنتظر إشارة من الحسناء لتعرف منها إن كانت تحتاج إليها لتُصاحبها في نزهةٍ قصيرة. كانت الغادات الثلاث من الحُسن والرقة بما يعجز عن وصفه كل تعبير، ومع ذلك فلم يزِدنَ الزنبقة إلا حسنًا فوق حسن؛ إذ كان على كل منهن أن تعترف بأنها لا تستطيع بحالٍ أن تُقارن نفسها بها.

كانت الزنبقة الحسناء في أثناء ذلك تتأمَّل الكلب العجيب مُنشرِحةَ الصدر. انحنت عليه ولمسته، فانطلق في نفس اللحظة يقفز أمامها! أخذ يتلفَّت حوله في مرح إلى ولية نعمته، ويُحيِّيها أصدق تحية.

تناولته بين يدَيها، وضمَّته إلى صدرها، وهتفت قائلة: «مرحبًا بك، مع أنك لا تزال بارد الأعضاء، ومع أن نصف حياة فحسب تختلج فيك، فإني أقول لك: سوف أمنحك الحب في حنان، وأمرح معك في وداعة، وأمسح عليك كما يفعل الصديق، وأشدُّك إلى صدري.» ثم أطلقته من بين يدَيها، وصرفته عنها، وعادت تُنادي عليه، وتُعابثه مُتلطفة، وتتسلى معه في مرح وبراءة على العشب مُرسِلةً النشوة في كل من يرى فرحتها ولا يملك إلا أن يُشاركها فيها، مثلما فاض حزنها من لحظاتٍ قليلة من كل قلب فشاطَرها فيها.

وصل الشاب الحزين، فقطع هذه البهجة وهذا المرح الخلَّاب. دخل كما عرفناه من قبل، ولكن بدا عليه كأن لفح الظهيرة قد زاده إجهادًا، كما بدا عليه في حضور المحبوبة كأنه يزداد شحوبًا في كل لحظة. كان يحمل الصقر على كفه وقد استراح عليها في هدوء، وترك جناحَيه يسقطان إلى جانبه.

بادرته الزنبقة هاتفة: «ليس من الود في شيءٍ أن تُحضِر معك هذا الحيوان الكريه وتضعه أمام عيني؛ هذا الوحش الذي قتل اليوم مُغنِّيَّ الصغير.»

أجابها الشاب قائلًا: «لا تعتبي على الطائر البائس، بل وجِّهي التهمة إلى نفسك وإلى القدر، وأْذَني لي أن أُصاحب رفيق تعاستي.»

لم يكُفَّ الكلب خلال ذلك عن مداعبة الجميلة، وراحت بدورها تُعامل المحبوب الشفَّاف معاملة الصديق للصديق؛ أخذت تصفعه بيدَيها لكي تُبعده عنها، ثم تجري نحوه لكي تعود فتجذبه إليها. كانت تُحاول أن تُمسِك به حين يفلت منها، وتطرده حين يحاول الإلحاح على مداعبتها. أخذ الشاب يتطلَّع إليها صامتًا وحنقه يزداد، حتى إذا مدَّت يدَيها أخيرًا فتناولت الحيوان المَقيت، الذي بدا له بشعًا غاية البشاعة، بين ذراعَيها، وضمَّته إلى صدرها الناصع البياض، ولثمَت شفتاها السماويَّتان خيشومه الأسود، نفد صبره كله، وصاح في يأسٍ مرير: «هل يتحتَّم عليَّ، أنا الذي حكم عليه القدر الحزين حكمًا قد يدوم إلى الأبد بفراقك، بينما أعيش إلى جوارك، أنا الذي فقدت بسببك كل شيء، لا بل فقدت نفسي، هل يتحتَّم علي أن أشهد بعينَيَّ كيف يُثير مثل هذا المسخ المشوَّه السعادة فيك، وكيف يأسر عاطفتك ويتمتَّع بضمِّك؟ هل حُكِم عليَّ أن أظل رائحًا غاديًا وأنا أقيس الدائرة المُحزنة، وأنا أعبُر النهر جيئة وذهابًا؟ لا! فلم تزَل تتَّقد في صدري شرارة من بسالتي القديمة! فلتشتعل في هذه اللحظة للمرة الأخيرة. إن كانت الأحجار يُباح لها أن تستريح على صدرك، فلأتحوَّل بدَوري إلى حجر، وإن كانت لمسة منك تُميت، فلأمُتْ بلمسة من يدَيك.»

لم يكَد يفرغ من هذه الكلمات حتى صدرت عنه حركةٌ عنيفة، فطار الصقر من يده، أما هو فاندفع يُلقي بنفسه على الجميلة، ومدَّت يدَيها تريد أن تُوقِفه، ولكن لمستها له كانت أسرع منها.

غاب عنه الوعي، وأحسَّت والفزع يستولي عليها بالحمل الجميل يستقرُّ على صدرها. أجفلت إلى الوراء صارخة، وسقط الشاب الطاهر من بين ذراعَيها على الأرض فاقد الحياة.

كانت الكارثة قد وقعت! وقفت الزنبقة الحلوة بلا حَراك تُحدِّق في جمود إلى الجثمان الذي فارقته الروح. شعرت كأن قلبها يتوقَّف في صدرها، وكانت عيناها بلا دموع. حاوَل الكلب عبثًا أن يستدرجها إلى مداعبته. كان العالم كله في عينَيها قد مات بموت صديقها. لم يتلفَّت يأسها الأخرس يطلب المساعدة؛ فلم تكن تدري كيف السبيل إليها.

غير أن الحية على العكس من ذلك زادت نشاطها. بدا عليها كأنها تُفكر في وسيلة للنجاة، وساعدت حركاتها العجيبة حقًّا في أن تُعطِّل النتائج المُفزِعة للكارثة لبعض الوقت على أقل تقدير. مدَّدت جسدها الطري المُتثني في دائرةٍ واسعةٍ حول الجثمان، وأمسكت طرف ذيلها بأنيابها، وبقيت راقدةً في هدوء.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى ظهرت إحدى خادمات الزنبقة الجميلات تحمل الكرسي العاجي، وأخذت تُلحُّ على الجميلة بإشارتها الودودة حتى جلست.

وجاءت الخادمة الثانية في أثرها تحمل قناعًا بلون النار، فزيَّنت به وجه سيدتها أكثر من أن تُغطيه به. أما الثالثة فناوَلتها القيثارة، ولم تكَد الزنبقة الحسناء تضغط الآلة الساحرة على صدرها، وتضرب على أوتارها بعض النغمات، حتى رجعت الخادمة الأولى تحمل في يدها مرآةً ناصعةً مُستديرة، جلست بها أمام الجميلة، وراحت تتلقَّف نظراتها، وتعرض عليها أعذب صورة في الطبيعة يُمكِن أن تقع عليها عين الإنسان. زاد الألم من جمالها، والقناع من سحرها، والقيثارة من رقتها، وبمثل ما تمنَّى كل إنسان أن تتبدَّل حالها الحزينة، فقد ود لو يتشبَّث إلى الأبد بصورتها كما تنعكس على المرآة.

راحت تتطلَّع في سكون إلى المرآة، وتنتزع من الأوتار أنغامًا مُؤثِّرة، ويزداد عليها الألم فتُردِّد الأوتار لوعتها في قوة، وفتحت فمها مرةً لتُغنِّي، ولكن صوتها لم يُطاوعها، ثم سرعان ما ذاب حزنها في دموعها، وأمسكت فتاتان بذراعَيها تُعِينانها، وسقطت القيثارة من حجرها، فتلقَّفتها الخادمة بسرعة، وحملتها جانبًا.

فحَّت الحية في صوتٍ خفيض ولكنه مسموع: «من يُحضِر لنا الرجل ذا المِصباح قبل أن تغيب الشمس؟»

تطلَّعت الفتَيات إلى بعضهن، وانهمرت دموع الزنبقة، وفي هذه اللحظة رجعت المرأة ذات السلة لاهثةَ الأنفاس، أخذت تصيح: «لقد ضِعتُ وشُوِّهتُ! انظُرنَ كيف أوشكت يدي أن تختفي. لا الملَّاح ولا العملاق قبِلَ أن يعبُرا بي النهر؛ لأنني ما زلت مَدينة له. عبثًا حاولتُ أن أُقدِّم لهما مائة رأس قرنبيط ومائة خرشوفة. إنهما لا يريدان أكثر من الثمار الثلاثة، وما من خرشوفة واحدة أستطيع العثور عليها في هذه الناحية.» قالت الحية: «انسَي ما أصابك من هم، وحاوِلي الآن أن تُعاونينا؛ فقد يكون في ذلك العون لك أيضًا. أسرعي بقدر ما تستطيعين ففتِّشي عن النورَين التائهين. ما زال ضوء النهار يحُول دون رؤيتهما، ولكنك ربما سمعتِهما يضحكان ويتداعبان. إنهما إن أسرعا فسوف يعبُر العملاق بهما النهر، وحينئذٍ يستطيعان أن يجدا الرجل ذا المصباح، ويُرسِلاه إلينا.»

أسرعت المرأة بقدر ما استطاعت، وبدا على الحية كما بدا على الزنبقة أنهما ينتظران عودة العجوز والمصباح بفارغ الصبر، غير أن شعاع الشمس الغاربة كان قد كسا للأسف أعلى قِمم الأشجار في الدغل الكثيف، كما تمدَّدت الظلال الطويلة فوق البحيرة والدغل. تململت الحية نافدةَ الصبر، وانهمرت دموع الزنبقة.

تلفَّتت الحية حولها في هذه المحنة؛ فقد خشيت أن تغيب الشمس بين لحظة وأخرى، وينفذ الفساد إلى الدائرة السحرية، فيُعاجل الشاب الجميل بغير إبطاء. وأخيرًا لمحت الصقر يخفق ريشه الأحمر القرمزي في الأعالي، ويتلقَّى بصدره أشعة الشمس الأخيرة. أخذت تُنعِش نفسها فرحةً بالفأل الطيب، ولم تخدع نفسها، فما هي إلا لحظاتٌ قصيرة حتى ظهر الرجل ذو المصباح يتقدَّم عابرًا البحيرة، وكأنه يتزحلق على الجليد.

لم تُغيِّر الحية من موضعها، ولكن الزنبقة نهضت واقفةً، ونادت عليه قائلة: «أي روح طيِّب بعث بك في هذه اللحظة التي نتلمَّسك فيها، ونحتاج إليك أشدَّ الاحتياج؟»

أجابها العجوز قائلًا: «إن روح مصباحي هو الذي يدفعني، والصقر هو الذي يسوقني إلى هذا المكان. حين يحتاجني أحدٌ يتلألأ المصباح، وأتلفَّت حولي أُفتِّش في الأجواء المُحيطة بي عن علامة، فإذا بطائر أو شهاب يدلُّني على الاتجاه الذي يكون عليَّ أن أسير فيه. اهدئي يا أجمل الفتيات! لستُ أدري إن كان في مقدوري أن أُساعدك. إن الإنسان بمفرده لا يملك العون، ولكن يملكه من يتَّحد مع غيره في الساعة المناسبة. لِنَدع الأمر يسير في مجراه، ولنتذرَّع بالرجاء. حافِظي على أن تبقى دائرتك مُغلَقة.» قال العجوز ذلك مُوجِّهًا كلامه إلى الحية، وجلس على مُرتفَع من الأرض بجانبها، وسلَّط نور مصباحه على الجسد الميت، ثم قال مُوجهًا حديثه للفتيات: «أحضرن كذلك طائر الكناريا وضعنه في الدائرة!»

فعلت الفتيات كما قال العجوز، فتناوَلنَ الجثمان الصغير من السلة التي تركتها العجوز في مكانها.

كانت الشمس في أثناء ذلك قد أفلت، وحين تراكَم الظلام لم تبدأ الحية ومصباح الرجل في إرسال ضوئهما كلٌّ على طريقته فحسب، بل إن قناع الزنبقة راح يشعُّ نورًا رقيقًا كأنه شفقٌ ناعمٌ لوَّن وجنتَيها الشاحبتين وثوبها الناصع بفتنةٍ ساحرة لا سبيل إلى وصفها. تأمَّل الحاضرون بعضهم في صمت، وهدَّأ الرجاء اليقين من الهم واللوعة.

من أجل ذلك كان ممَّا يدعو إلى السرور أن تظهر المرأة العجوز في صحبة الشعلتَين المُضيئتين، اللتين بدا عليهما أنهما قد بذَّرا من ضوئهما تبذيرًا شديدًا حقًّا؛ إذ ظهرتا نحيلتَين شديدتَي النحول، وإن لم يزِدهما ذلك إلا لطفًا في معاملة الأمير وبقية النساء. أخذا يتكلَّمان في ثقةٍ تامة، وبصوتٍ مُعبِّر عن أمورٍ عادية، وبدا عليهما بوجهٍ خاصٍّ أنهما مأخوذان بالسحر الذي كان ينشره القناع المُنير على الزنبقة وصاحباتها. خفضت النساء أبصارهن في تواضع، وزادهن إطراء الجمال جمالًا.

كان الجميع مُغتبِطِين هادئين ما خلا العجوز؛ فعَلى الرغم من تأكيد زوجها لها بأن يدها لا يمكن أن تتقلَّص أكثر ممَّا هي عليه طالما كان ضوء مصباحه يسطع عليها، فقد راحت تُكرِّر وتُعِيد زاعمةً أن الحال لو استمرَّ على ما هو عليه لاختفى هذا العضو النبيل قبل أن ينتصف الليل.

أنصت العجوز ذو المصباح إلى حديث النورَين التائهين في انتباه، وسرَّه أن شغل الزنبقة عن همِّها، وأعاد إليها مرحها. كان الليل قد انتصف حقًّا، ولم يدرِ أحد كيف. تطلَّع العجوز إلى النجوم، وشرع يقول: «ها هي الساعة السعيدة تجمَعنا، فليقُم كلٌّ بعمله، وليؤدِّ واجبه، وسوف تُذيب السعادة المُشتركة الآلام واحدًا واحدًا، كما يلتهم الشقاء المُشترك الأفراح كلًّا على حِدَة.»

بعد أن انتهى العجوز من إلقاء هذه الكلمات سمع خليطًا عجيبًا من الأصوات؛ فقد أخذ كل واحد من الحاضرين يُكلِّم نفسه، وينطق بصوت عالٍ بما عليه أن يفعل، ما خلا الفتيات الثلاث؛ فقد خيَّم عليهن الصمت. كانت إحداهن قد غلب عليها النوم بجانب القيثارة، والأخرى بجانب المِظلَّة، والثالثة بجوار الكرسي، ولم يكُن لأحدٍ أن يلومهن؛ فقد كان الوقت مُتأخرًا. أما الصبيَّان المُشتعلان، فبعد أن غمرا الجميع بمظاهر الأدب العابرة، التي لم يحرما الخادمات أيضًا منها، فقد انصرفا أخيرًا بكليَّتهما إلى الزنبقة وحدها التي كانت أروعهن جمالًا.

قال العجوز للصقر: «أمسِكْ بالمرآة وبشعاع الشمس الأول. أنِرِ النائمات وأيقِظْهن بنورٍ مُرتدٍّ من الأعالي!»

بدأت الحية تُحرِّك نفسها، ففكَّت الدائرة المُغلَقة، وراحت تزحف زحفًا بطيئًا في حلقاتٍ كبيرة نحو النهر. تبعها النوران التائهان في احتفال، حتى ليحسبهما الإنسان أكثر الشعلات جدًّا ووقارًا، وأمسكت العجوز وزوجها بالسلة التي لم يكَد أحد حتى الآن يُلاحظ النور الرقيق المُنبعث منها، وتناولاها من طرفَيها، وهي تزداد بين أيدَيهما بهاءً، وتكبَر شيئًا فشيئًا، ورفعا جثمان الشاب، ومدَّداه فيها، ووضعا طائر الكناريا على صدره. ارتفعت السلة في الفضاء، وأخذت ترفُّ فوق رأس العجوز التي سارت في أثر النورَين التائهين، فتناولت الزنبقة الحسناء الكلب، ووضعته على ذراعَيها، وتبعت العجوز. أما الرجل ذو المصباح، فسار في المُؤخرة من الموكب، وغمرت هذه الأضواء كلها الناحية، فنوَّرتها بنورٍ ساطعٍ غريب، ولكن لم يقلَّ عَجب هذه الجماعة من المسافرين عندما وصلت إلى النهر فأبصرت قوسًا رائعًا يمتدُّ، عبَّدت به الحية طريقًا مُضيئًا.

وإذا كانوا قد أُعجِبوا في مطلع النهار بالأحجار الثمينة الشفَّافة التي بدا كأن الجسر صُنِع منها، فقد تملَّكتهم الدهشة في الليل وهم يتأمَّلون روعتها الباهرة السناء.

حفَّ الجانب العلوي من الدائرة الساطعة بالسماء المُعتِمة، أما في ناحيتها السفلى فقد اختلجت أشعةٌ مُتدفقة بالحيوية في اتجاه المركز، فأوضحت الثبات المُتحرك للبناء.

عبَر الموكب في بطء على الجسر، وأطلَّ المراكبي من كوخه على البُعد يتأمَّل في دهشة الدائرة الساطعة والأنوار العجيبة التي تعبُرها.

لم يكَد الموكب يصل إلى الضفة الأخرى من النهر حتى بدأ القوس يتأرجح على طريقته، وينعطف انعطافَ الأمواج ناحية النهر، وسرعان ما زحفت الحية على اليابسة، وهبطت السلة على الأرض، فعادت الحية فطوَّقتها بدائرتها. انحنى العجوز أمامها وقال: «ماذا قرَّرتِ أن تصنعي؟» فأجابت الحية: «أن أُضحِّي بنفسي قبل أن يُضحَّى بي. عِدني بأنك لن تترك حجرًا واحدًا على اليابسة.»

وعد العجوز بما قالت، ثم خاطب الزنبقة الحسناء قائلًا: «الْمِسي الحية بيُسراك، وحبيبك بيُمناك.»

ركعت الزنبقة، ومدَّت يدها فلمست الحية والجثمان، الذي بدا عليه أنه ينتقل في نفس اللحظة إلى الحياة، ثم أخذ يتحرك في السلة، بل انتصب في جلسته وجلس. أرادت الزنبقة أن تُعانقه، ولكن العجوز منعها من ذلك، واتَّجه إلى الشاب يُعِينه على النهوض، وأخذ بيده فخرج به من السلة ومن الدائرة.

نهض الشاب واقفًا، ورفَّ طائر الكناريا فوق كتفه. كانت الحياة قد دبَّت فيهما، ولكن الروح لم يكُن قد عاد إليهما. كان الصديق الجميل مفتوح العينَين، ولكنه لم يكُن يرى شيئًا، أو كان يبدو عليه على الأقل كأنه ينظر حوله بغير أن يُشارك في شيء ممَّا يرى، ولم يكَد عَجب الحاضرين من ذلك يخفُّ قليلًا حتى لاحظوا التغير العجيب الذي طرأ على الحية. كان جسدها الجميل النحيل قد تفتَّت إلى آلاف وآلاف من الأحجار الثمينة المُضيئة. لم تحترس العجوز التي أرادت أن تمدَّ يدها إلى السلة فاصطدمت بها، ولم يعُد أحد يرى شيئًا من بقية الحية؛ فلم يبقَ منها غير دائرة جميلة من الأحجار البرَّاقة مُلقاةً بين الأعشاب.

شرع العجوز على الفور في جمع الأحجار في السلة، وكان على زوجته أن تُساعده في ذلك. حملا السلة إلى الشاطئ، فوضعاها في مكانٍ مرتفع، وأفرغ الرجل الحمل كله في النهر، ولم يبرأ من معارضة الزنبقة الحسناء وزوجته اللتَين ودَّتا لو تستطيعان اختيار

شيء منها لأنفسهما. سبحت الأحجار مع الأمواج كأنها نجومٌ لامعةٌ برَّاقة، ولم يكُن أحد يستطيع أن يتبيَّن إن كانت قد ضاعت مع التيار أو سقطت في قاع النهر.

قال العجوز في خشوع مُوجهًا حديثه للنورَين التائهين: «سادتي! الآن أريد أن أُرِيكما الطريق وأفتح لكما الدرب، ولكنكما تُسديان إلينا خدمةً عظيمة إن فتحتما لنا بوابة المَعبد المقدَّس، التي يتحتَّم علينا الآن أن ندخل منها، والتي لا يستطيع أحد غيركما أن يفتحها.»

انحنى النوران التائهان انحناءةً مُهذَّبة، ولبثا في مكانهما، وتقدَّم العجوز ذو المصباح إلى الصخر فانفتح له. لحِقَ الشاب به على الفور في حركةٍ آلية، وبقيت الزنبقة على بُعدٍ قليل منه هادئةً غيرَ واثقة من نفسها. أما العجوز فلم تشَأ أن تتخلَّف، ومدَّت يدها لكي يتسنَّى للنور المُنبعث من مصباح زوجها أن يقع عليها. وسار النوران التائهان في مُؤخرة الموكب، ومالت أطراف شعلتَيهما إلى بعضها، فبدا عليهما كأنهما مُستغرِقان في الحديث.

لم يكُن قد طال بهم السير حين ألقى الموكب نفسه أمام باب عظيم صُنِع من الحديد، وأُغلِق جناحاه بقفلٍ ذهبي. نادى العجوز على النورَين التائهين، ولم يكونا في حاجة لمن يدعوهما إلى العمل؛ فقد أقبلا على القفل والمِزلاج يلتهمانهما بشعلتهما ذات الأطراف الحادَّة.

رنَّ صوت المعدن عاليًا حين انفتحت البوابات في سرعةٍ مُذهلة، وظهرت تماثيل الملوك ذات الجلال وقد غمرتها الأنوار التي سقطت عليها. أحنى الحاضرون رءوسهم أمام الملوك الأجِلَّاء، ولم يُقصِّر النوران التائهان أيضًا في تقديم انحناءاتهما العجيبة المُتثنية.

مرَّت فترة من السكون قبل أن يسأل الملك الذهبي: «من أين تأتون؟»

أجاب العجوز: «من العالم!»

سأل الملك الفضي: «وإلى أين تذهبون؟»

فقال العجوز: «إلى العالم!»

سأل الملك الحديدي: «ماذا تطلبون عندنا؟»

أجاب العجوز: «أن نكون في صحبتكم.»

أراد الملك المُختلط أن يبدأ الكلام حين سمع الملك الذهبي يقول للنورَين التائهين اللذين اقتربا منه اقترابًا شديدًا: «ابتعِدا عنِّي! إن ذهبي لم يُخلَق لحلوقكم!»

فما كان منهما إلا أن اتَّجها ناحية الملك الذهبي، والتصقا به، والتمع رداؤه بالنور الأصفر المُنعكس منهما التماعًا جميلًا، وقال: «مرحبًا بكما، وإن كنت لا أستطيع أن أُطعِمكما. أشبِعا بطونكما عند غيري، ثم أحضِرا لي نوركما!»

ابتعدا عنه وتسلَّلا مُختفيَين من جانب الملك الحديدي، الذي لم يبدُ عليه أنه انتبه إليهما، وذهبا إلى الملك المركَّب من معادن مُختلطة. هتف بهما الملك في صوتٍ مُتلعثِم: «مَن الذي سيحكم العالم؟»

فأجاب العجوز قائلًا: «الذي يقف على قدمَيه.»

قال الملك المختلط: «أنا هو الحاكم!»

قال العجوز: «سوف يتَّضح الأمر عمَّا قريب؛ لأن الأوان قد آن.»

ألقت الزنبقة الحسناء بنفسها على العجوز، فطوَّقت رقبته بذراعَيها، وقبَّلته قُبلةً صادقةً حارَّة. قالت له: «يا أبي المقدَّس، ألف مرة أشكرك، فها أنا أسمع الكلمة المُوحية للمرة الثالثة!»

ولم تكَد تنتهي من حديثها حتى وجدت نفسها تزداد تشبثًا بالعجوز؛ فقد بدأت الأرض تهتزُّ من تحتها، والتحم العجوز والشاب ببعضهما. أما النوران التائهان المُتدفقان حركةً فلم يفطنا إلى شيء.

أحسَّ الحاضرون إحساسًا واضحًا بأن المَعبد يتحرَّك كله كسفينةٍ تبتعد رويدًا رويدًا عن الميناء حين تُفَك مَراسيها، وبدا كأن أعماق الأرض تتفتَّح أمامه ليشقَّ طريقه فيها.

لم يصطدم بشيء. لم يقف شيء في طريقه.

مرَّت لحظاتٌ قليلة خُيِّل فيها للحاضرين كأن رذاذًا خفيفًا يتقطَّر من كوَّة في القبة. ضمَّ العجوز الزنبقة الحسناء إليه، وقال لها: «نحن الآن تحت النهر، ونُوشِك أن نبلغ الهدف.» انقضت لحظاتٌ حسبوا فيها أنهم ثابتون في مكانهم، ولكنهم كانوا مُخطئين؛ فقد كان المعبد يرتفع إلى أعلى.

سمعوا ضجةً غريبةً فوق رءوسهم، وراحت ألواح وعروق من الخشب تنهال على رءوسهم في صخب واختلاط من كوَّة القبة. قفزت الزنبقة والعجوز جانبًا، وتشبَّث الرجل ذو المصباح بالشاب ولم يبرح مكانه. سقط كوخ المراكبي الصغير — فقد كان هذا الكوخ هو ما اقتلعه المَعبد من الأرض، وحمله معه عند ارتفاعه — شيئًا فشيئًا، وغطَّى الشاب والعجوز.

تعالت صيحات النساء، وارتج المَعبد كالسفينة التي ترتطم باليابسة. أخذت النساء تَهيم في الغسق طائفاتٍ حول الكوخ. كان الباب مُغلقًا، ولم يستجب أحد لطرقاتهن. اشتد طَرقهن عنفًا، ولم يقلَّ عَجبهن حين انتهى إلى سمعهن رنينٌ ينبعث من الخشب. كان الكوخ قد تحوَّل بفضل المصباح المحبوس فيه إلى فضةٍ تتلألأ من الداخل إلى الخارج.

ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى تحوَّل شكل الكوخ نفسه؛ فقد فارق المعدن الكريه الصور العارضة للألواح والأعمدة والقوائم الخشبية، وتمدَّد فصار مبنًى رائعًا من المعدن المطروق. وهكذا نشأ مَعبدٌ رائعٌ صغير في وسط المَعبد الكبير، أو إن شئنا فمَذبحٌ جدير بجلال المَعبد.

ارتقى الشاب النبيل درجاتِ سُلَّم يرتفع من الداخل، وأنار له الرجل ذو المصباح الطريق، وبدا كأن رجلًا آخر يُساعده على الصعود، ويرتدي ثوبًا ناصعًا قصيرًا، ويحمل في يده مِجدافًا من الفضة، عرف فيه الحاضرون المراكبي؛ ذلك الساكن القديم للكوخ المُتحوِّل.

صعدت الزنبقة الحسناء الدرجات المُتطرفة التي تؤدي من المَعبد إلى المذبح، وكان ما يزال عليها أن تظلَّ بعيدة عن حبيبها، وهتفت العجوز التي كانت يدها تتضاءل شيئًا فشيئًا ما بقي المصباح في مخبئه: «هل كُتِب عليَّ أن أبقى شقيَّة؟ أليست هناك معجزة من بين هذه المعجزات الكثيرة تُنقِذ يدي؟» أشار زوجها للباب المفتوح وقال: «انظري! إن النهار يطلع. أسرعي واستحمِّي في النهر!»

صاحت قائلة: «يا لها من نصيحة! إذن فقد قُدِّر لي أن أُصبح سوداء فاحمة السواد، وأن أختفي تمامًا من الوجود. إنني لم أقُم بسداد ديني!»

قال العجوز: «اذهبي واتبعيني. كل الديون قد سُدِّدت.»

هرولت العجوز مُسرِعة، ولاح نور الشمس المُشرِقة في نفس اللحظة يُجلِّل هامة القبة. تقدَّم العجوز فوقف بين الشاب والعذراء، ونادى بصوتٍ مرتفع: «ثلاثة يحكمون الأرض: الحكمة، والمظهر، والسلطان.»

انتصب الملك الذهبي عند سماعه الكلمة الأولى، والملك الفضي عند سماعه الثانية، وسمع الملك الحديدي الكلمة الثالثة فنهض يتحامل على نفسه في بطء.

بينما جلس الملك المختلط فجأةً بطريقةٍ خلَت من كل حِذق، حتى إن كل من رآه لم يملك أن يمنع نفسه من الضحك؛ ذلك أنه لم يكن يجلس، ولم يكن يرقد، ولم يكن يستند إلى شيء، بل انهار مُنكمشًا على نفسه.

تنحَّى النوران التائهان جانبًا، وكانا طوال الوقت عاكفَين عليه مشغولَين به.

وبالرغم من شحوبهما في ضوء المصباح، فقد بدَت شعلتهما ناضرةً حية. كانت ألسنتهما الحادَّة المُدبَّبة قد امتدَّت إلى العروق الذهبية المنتشرة في التمثال الهائل فلعقتها، وأوغلت في صميمها. بقيت الفراغات غير المُنتظمة الناتجة عن ذلك مفتوحةً بعض الوقت، كما بقي الشكل العام على هيئته السابقة، حتى إذا التهمت الألسنة الحادَّة العروق المُتناهية

في الدقة، انهار التمثال كله مرةً واحدة، وكان انهياره مع الأسف في تلك المواضع التي تبقى عادةً على حالها عند الجلوس، أما المفاصل التي كان ينتظر أن تنثني، فقد بقيت على العكس من ذلك مُتصلِّبة. اضطرَّ كل من لم يقوَ على الضحك إلى أن يُحول عينَيه بعيدًا؛ فقد كان ممَّا يؤذي العين أن ترى شيئًا وسطًا بين الشكل المُنسَّق والكومة المُتكورة.

هبط الرجل ذو المصباح درجاتِ المَذبح، وتقدَّم الشاب الجميل الذي ما لبث يتطلَّع جامِدَ العينَين أمامه متَّجِهًا بها إلى الملك الحديدي.

كان هناك سيفٌ مُلقًى عند قدمَي الأمير الجبَّار في غِمده الحديدي، فمدَّ يده وتحزَّم به. صاح به الملك الجبَّار: «ضع السيف في يُسراك، ودع يُمناك حرةً طليقة!»

ثم ذهب إلى الملك الفضي الذي أدنى صولجانه من الشاب، فقبض عليه بيُسراه، وقال له الملك في صوتٍ عذب: «ارعَ الأغنام!»

فلما جاء إلى الملك الذهبي مدَّ هذا يده الأبوية يُبارك بها الشاب، ويضع على رأسه إكليلًا من أوراق شجر البلوط، وقال: «اعرف أعلى الموجودات!»

كان العجوز أثناء هذه الجولة يُراقب الشاب مُراقبةً دقيقة، فما إن تحزَّم بالسيف حتى ارتفع صدره، وتحرَّك ذراعاه، وازدادت خطواته صلابة، وما إن أمسك الصولجان بيده حتى بدا كأن قوَّته قد وهنت، وكأن سحرًا لا سبيل إلى وصفه قد زادها مع ذلك بأسًا وقوة، حتى إذا زان إكليل البلوط خصلات شعره، فاضت الحيوية على ملامح وجهه، ولمعت عيناه بروحانية لا يمكن التعبير عنها، وكانت أول كلمة نطق بها فمه: «زنبقة! يا حبيبتي الزنبقة!» هتف بهذه الكلمات وهو يصعد الدرجات الفضية مُسرِعًا إلى لقائها؛ فقد كانت قد تابعت رحلته من شرفة المَذبح: «أيتها الزنبقة يا حبيبتي! ماذا يستطيع الرجل الذي أنعمت عليه الطبيعة بكل شيء أن يشتهي لنفسه أعذب من البراءة والانعطاف الوديع اللذَين يحتويهما صدرك؟» ثم اتَّجه إلى العجوز، وتأمَّل التماثيل الثلاثة المقدَّسة، واستطرد يقول: «آهٍ يا صديقي! رائعة ومأمونة هي مملكة آبائنا، ولكنك نسيت القوة الرابعة، التي هي أسبق منها جميعًا في حكم العالم، وأعم وأبعد يقينًا؛ قوة الحب.» قال ذلك وألقى بنفسه على الحسناء فطوَّق رقبتها. كانت قد نزعت القناع وألقته بعيدًا عنها، ولوَّنت خدَّيها حُمرةً فاتنةً باقية الجمال.

أجاب العجوز مُبتسمًا: «الحب لا يحكم، بل يُربِّي، وهذا أكثر.»

لم ينتبه الحاضرون في غمرة الاحتفال والسعادة والنشوة إلى وضوح النهار، فإذا بأبصارهم تقع — عبر الباب المفتوح — على أشياء لم يتوقَّعوها. رأوا فناءً عظيمًا تُحيط

به الأعمدة، وفي نهايته جسرٌ طويلٌ رائع البهاء يمتدُّ على النهر بأقواسه الكثيرة، وعلى جانبَيه ممرَّان مُصطفَّان بالأعمدة، أُعِدَّ لنزهة العابرين فوقه إعدادًا مُريحًا أخَّاذًا، وكم من ألوف منهم دأبوا على العبور عليه جيئة وذهابًا. كان الطريق الطويل في منتصفه يمتلئ بالقُطعان والبغال، بالخيالة والعربات التي ازدحمت على جانبَيه، وراحت تنساب انسياب النهر هنا وهناك بغير أن تعُوق بعضها البعض عن السير. كان يبدو عليهم جميعًا كأنهم مأخوذون بالروعة والنزق من حولهم، وأسعد الملكَ الجديد وزوجته رؤيةُ الحياة والنشاط تدبُّ في هذا الشعب العظيم، بمقدار ما أسعدهما حبهما المُتبادل.

قال الرجل ذو المصباح: «أكرِمْ ذكرى الحية! إنك مَدين لها بالحياة كما تدين شعوبك لها بالجسر، الذي جعل من هذَين الشاطئين المُتجاورين بلدَين تدبُّ فيهما الحياة، وربط بينهما. تلك الأحجار الثمينة التي تسبح برَّاقةً على النهر هي بقايا جسدها الذي ضحَّت به، وهي أعمدة هذا الجسر الرائع. لقد بُنِي عليها، وسيحتفظ ببنائه فوقها.»

أراد الحاضرون أن يسألوه أن يكشف لهم هذا السر العجيب حين دلفت أربع فتيات حِسان من باب المَعبد.

تعرَّف الحاضرون فيهن على رفيقات الزنبقة من القيثارة والمِظلَّة والكرسي، أما الحسناء الرابعة المجهولة التي فاقت الثلاث جمالًا، فقد دخلت من الباب بسرعة وهي تمرح بينهن مرحًا أخويًّا، ثم صعدت السلالم الفضية.

قال الرجل ذو المصباح للحسناء: «هل ستُصدِّقينني في المستقبل يا زوجتي العزيزة؟ طوبى لك ولكل مخلوق يستحمُّ هذا الصباح في ماء النهر!»

أقبلت العجوز التي ارتدَّ إليها شبابها وجمالها، والتي لم يبقَ لخلقتها السابقة أي أثر على الرجل ذي المصباح، فضمَّته بذراعَين شابَّتَين مُتدفقتين بالحياة، فتقبَّل عناقها مسرورًا، وقال لها وهو يبتسم: «إن رأيت أنني عجوز بالنسبة لك، ففي استطاعتك أن تختاري لك زوجًا آخر. لن يصحَّ بعد اليوم زواج إلا إذا انعقدت أواصره من جديد.»

أجابت قائلة: «ألا تدري أنك أصبحت شابًّا؟»

– «يسرُّني أن أبدو لعينَيك الشابَّتَين في مظهر الفتى المِقدام، وها أنا آخذ يدك من جديد سعيدًا بأن أعيش معك الألف عام المُقبِلة.»

رحَّبت الملكة بصديقتها الجديدة، وهبطت معها درجات المَذبح، تصحبها رفيقاتها الأُخَر، في حين راح الملك الذي توسَّط الرجلَين يتأمَّل مواكب الشعب المُصطخبة في انتباه.

ولكن سعادته لم تدُم طويلًا؛ فقد رأى ما بعث الضجر في نفسه. كان العملاق الكبير، الذي بدا عليه أنه لم يُفِق من نوم الصباح تمامًا، يتمايل قادمًا إلى الجسر، وينشر الاضطراب

العظيم من حوله. كان قد نهض في سكرة النوم كعادته يريد أن يستحمَّ في خليج النهر الذي يعرفه، فلم يجد في مكانهما إلا اليابسة، ومضى يخبط على الرصيف العريض، ومع أنه مرق بين البشر والبهائم بلا حِذق أو تدبُّر، فقد أدهش الجميعَ وُجودُه وإن لم يشعر به أحد، فلما انعكست الشمس على عينَيه، ورفع يدَيه ليمسحهما بهما، أخذ ظلُّ قبضته الجبَّار يتقلَّب هنا وهناك في قوة واضطراب بين الجماهير، حتى تدافعت حشود الناس والحيوانات، فاصطدمت ببعضها البعض، وأصابها الأذى، وتعرَّضت لخطر السقوط في النهر.

عندما رأى الملك هذا الفعل البشِع، امتدَّت يده بحركةٍ غير مقصودة لتقبض على السيف، ثم ما لبث أن تروَّى وأخذ ينظر إلى صولجانه، ثم إلى المصباح والمِجداف في يد رفيقَيه. قال الرجل ذو المصباح: «إني أحدس بما يدور في خاطرك، ولكننا وكل ما في طاقتنا من قوة عاجزون عن مواجهة هذا العاجز. تذرَّعْ بالهدوء! فهذه هي المرة الأخيرة التي يُؤذينا فيها، ومن حسن الحظ أن ظله قد ارتدَّ عنا.»

اقترب العملاق في أثناء ذلك اقترابًا شديدًا، وأصابه الذهول ممَّا رآه بعينَين مفتوحتين، فترك يدَيه تسقطان، ولم يعُد يؤذي أحدًا، وسار مدهوشًا إلى الفناء الأمامي. اتَّجه مباشرةً نحو باب المَعبد، وإذا به يجمد فجأةً في منتصف الفناء، ويتصلَّب في مكانه تمثالًا ضخمًا هائلًا من الحجر الأحمر اللامع، يُشير ظله إلى الساعات التي رُصِّعت من حوله في دائرة على الأرض، لا في شكل أعداد، بل على هيئة صورٍ نبيلةٍ دالَّة المعاني.

لم تكُن فرحة الملك قليلة وهو يُشاهد ظل العملاق الهائل يتَّجه وجهةً نافعة، ولم يكُن عَجب الملكة قليلًا وهي تصعد في أبهى زينتها إلى المَذبح والعذارى في رفقتها؛ فإذا بها تلمح التمثال الغريب الذي كاد يحجب الرؤية من المَعبد إلى الجسر.

كان الشعب في أثناء ذلك قد تدافَع نحو العملاق الساكن في مكانه، فأحاط به من كل جانب، وأخذ يتطلَّع مدهوشًا إلى التحوُّل الذي طرأ عليه. ومن هناك اتجهت الجماهير بأبصارها إلى المَعبد الذي يبدو عليها كأنها تراه لأول مرة، وتدفَّقت مُندفعةً نحو الباب.

في هذه اللحظة رفَّ الصقر الذي يحمل المرآة عاليًا فوق المَعبد، والتقط نور الشمس، وألقى به فوق الجماعة الواقفة فوق المَذبح. ظهر الملك والملكة ورفاقهما في غبش الضوء المُنتشر في قبو المَعبد في هالة من النور السماوي، وخرَّ الشعب ساجدًا على وجهه. وحين أفاقت الجماهير ونهضت، كان الملك تتبعه حاشيته قد هبط درجات المَذبح في طريقه إلى قصره عابرًا ردهاتٍ خفيَّة، وتفرَّق الشعب في جنبات المَعبد لكي يُرضي شهوته إلى التطلع.

أخذ يتأمَّل الملوك الثلاثة المُنتصِبين في وقفتهم بعيونٍ ملؤها الدهشة والإجلال، ولكن حبه للاستطلاع جعله يتُوق إلى معرفة ذلك الشيء المتكوِّر تحت السجادة في الفجوة الرابعة. وأيًّا ما كان ذلك الشيء، فقد شاء التواضع العطوف أن يبسط على الملك المُنهار غطاءً باهِرَ الجمال، لا تملك عين أن تنفُذ منه، ولا تجسر يد أن تكشف عنه.

لم يكُن لتأمُّل الشعب أو لإعجابه أن يقف عند حد، ولا للجماهير المُتدفقة المُتزاحمة أن تنجو من الاختناق في المَعبد لو لم يتحوَّل انتباهها من جديد إلى الميدان الكبير.

رنَّت قِطعٌ ذهبية على الألواح المرمرية على غير انتظار، وكأنما سقطت من الهواء، واندفع المُتجوِّلون القريبون منها يتزاحمون عليها ليفوزوا بها، وتكرَّرت هذه المعجزة مرةً فمرة، هنا وهناك. ويفهم القارئ بلا شك أن النورَين التائهين قد سمحا لنفسَيهما قبل أن ينصرفا بشيء من المزاح، فراحا في مرح يُبدِّدان الذهب المُتناثر من أعضاء الملك المُنهار. انقطع سقوط الذهب، ولم ينقطع نهم الشعب، فظلَّ يجري هنا وهناك، ويتدافع، ويكاد يُمزِّق بعضه بعضًا. وفي نهاية المطاف تفرَّق شمله، ومضى في طريقه، ولم يزَل الجسر إلى يومنا هذا يعجُّ بالسائحين، ولم يزَل المَعبد أكثر الأماكن على وجه الأرض عُمرانًا بالزائرين.

تفسير الأقصوصة

في الرابع من أكتوبر عام ١٨٢٦م، أمسك جوته بالقلم، ودوَّن في مذاكرته هذه العبارة: «موضوع الصيد العجيب من جديد.» كان عليه أن ينتظر ثلاثين عامًا كاملة قبل أن يبدأ في تحقيق المشروع الذي أراد أن يكتبه شعرًا ملحميًّا، بعد فراغه من قصيدته الكبرى «هرمان ودوروثيا» مباشرة، كما ذكر ذلك عدة مرات في رسائله المُتبادلة بينه وبين شيلر.

وفتَّش عن الملاحظات التي دوَّنها في عام ١٧٩٧م فلم يجدها تحت يدَيه، ولكنه بعد هذه المدة الطويلة التي انقضت بين الفكرة والتحقيق يشعر بالسعادة، فما كان للمشروع القديم إلا أن يُربِكه ويُحيِّره. إنه يقول الآن لإكرمان في أحد أحاديثه المشهورة معه:[1] «حقًّا لقد بقي الفعل وتطوَّر الحدث على ما هما عليه، غير أنه أصبح يختلف عنه اختلافًا تامًّا في التفاصيل. لقد كان في نيَّتي أن أتناوله تناولًا ملحميًّا في أوزانٍ سداسية، وهكذا ما كان ليصلح على الإطلاق للاستفادة منه في هذا التصوير النثري.»

لم يتغيَّر إذن مجرى الأحداث كما خطَّطها قبل ثلاثين عامًا: عالم المدينة الصغيرة، جو الصيد المرِح، الوحش الكاسر يدخل في صورة النمر والأسد فيصرعه الصيَّاد البطل ببندقيته، أو يُروِّضه الطفل الوديع بمزماره. بقيت الحكاية ملحميةً كما كانت. الأسلوب وحده هو الذي تغيَّر. إنه الآن يكتبها نثرًا بعد أن كان يريد أن يجعل منها قصيدةً ملحمية، وبقي الختام كذلك على حاله. إن «هونوريو» ليس هو البطل الملحمي الذي يحمل الحدث

[1] الحديث بتاريخ ١٥ يناير ١٨٢٧م.

على أكتافه إلى النهاية؛ إذ لا يكاد يتمُّ فِعله البطولي الذي يصرع به النمر، حتى يتخلَّى عن الساحة للطفل والوحش وحدهما.

في بداية الأقصوصة يعرض الأمير العم على الأمير لوحاتٍ مُصوَّرةً للقلعة العتيقة، فيتذكَّر قارئ جوته مَشاهد الطبيعة في روايته «الأنساب المختارة».[٢] كانت الطبيعة هنا — إن جاز هذا التعبير — طبيعةً إنسانية، تعكس ما يضطرم في قلب الإنسان من عواطف، حتى تكاد هي نفسها أن تصبح طرفًا من أطراف المأساة. إن شارلوته وإدوارد والضابط يتدخَّلون في مجرى الطبيعة كما لو كانوا يُفصِّلونها على هواهم، ويد الإنسان تُزيِّن كل شيء، حتى القبور والحُفَر والهُوى السحيقة. والنهر يثور تحت سياط العاصفة ليُغرِق الطفل المسكين، والحديقة تمرُّ عليها يد شارلوته فتُزينها وترعاها، وتُثبت أن الإنسان يستطيع حين يعتصم بالأخلاق أن يُواجه ثورة الطبيعة، ويكبح جِماح عناصرها الشيطانية المُدمِّرة، وإن كُتِب عليه في نهاية الأمر أن يسقط صريعًا تحت أقدام قدرها الباطش المجنون، ولكن الطبيعة في الأقصوصة يسُودها روحٌ آخر؛ فالعم يعترف بـ «القوة الحية الفعَّالة أبدًا»، التي تبقى في حين يندثر ما تُشيِّده يد الإنسان. إن الأسوار تتهدَّم، والقلعة لا يبقى منها غير أطلال، ولكن الجذوع الضخمة والأغصان الممتدَّة لا تستطيع أن تلمسها يد الفناء. «لقد أصبحت «الطبيعة» سيدة، ومن حقها أن تبقى كذلك. غلبت الطبيعة فما استطاع الإنسان أن يشقَّ لنفسه غير طريق خفي يؤدي إلى ساحة الفناء الداخلي. هنالك مدَّت شجرة بلوط جذوعها في الدرجات المؤدية إلى البرج الرئيسي.» إنها «تسمو في الهواء مرتفعةً فوق كل شيء» رمزًا لانتصار الطبيعة، وعنوانًا على خلقها المتَّصِل وجلالها الأبدي. إنها تتحدَّث الآن بقوة لسكان القصر الجديد، وسوف تُزين الصور أبهاء الحديقة، فليس لأحدٍ «أن يُمتع عينَيه بحوض زهورنا، ولا بتكعيبتنا وممراتنا الظليلة الممهَّدة، ما لم تكن لديه الرغبة الأكيدة في أن يعتلي هذا المُرتفَع الماثل هناك، ويتملَّى من رؤية القديم والجديد، والجامد والصامد، رؤيةً صادقة، ويتفكَّر في كل ما لا تنال منه يد الزمان، وما ينبض بنضارة الحياة.» ذلك هو واجب «التأمل الورِع» الذي يفرضه القديم على الجديد، وتقتضيه الطبيعة العجوز الشابَّة أبدًا من بني الإنسان الفانين. هنالك لا تكون حادثة النمر والأسد مجرد مناسبة تُتيح للشاعر أن يُضفي على أرض الشمال جلال الروح الكلاسيكية العريقة. إن تأمُّل الطبيعة في

[٢] ترجمها إلى العربية الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي.

حد ذاته يحمل السعادة للنفس، ويُلقي بالإنسان الزائل في أحضان الطبيعة الخالدة، ويردُّ الماضي المُشرِق إلى الحاضر الشاحب، كما يبعث الحياة في عالمٍ ما أشدَّ حاجتَه إلى التغيير والتجديد.[٣]

إن جماعة الصيد الغريبة تبقى على حالها، وكذلك سيدات البلاط وسادته، لكن العنصر الإنساني الخالد يُضيء بين هذه الجماعة وتلك، على بريق الألوان والمَشاهد المُتغيرة، في صورةٍ يعجز العقل عن إدراكها، والوجدان عن الحدس بها، ولكنها صورةٌ مقدَّسةٌ جيَّاشة بالحياة.

والطريق إلى هذا العنصر الخالد، على الرغم من قِصر الأقصوصة، طريقٌ طويل. إنه يقُودنا على دربٍ تألفه العين تارةً ويُفاجئها تارةً أخرى، ولكن النظرة الخبيرة تستطيع أن تستشفَّ من وراء ما تراه من مَشاهد الطبيعة المُتغيرة شيئًا ثابتًا لا يتغير، ومن وراء تعدُّد المظاهر قانونًا واحدًا خالدًا، كما يستشعر القلب من خلال الأسلوب الهادئ النبيل وِجدانًا نفسيًّا وأخلاقيًّا عميقًا.

إن العم والأميرة وهونوريو يعبُرون السوق على ظهور خيولهم، فتُوحي إليهم حركة البيع والشراء النشيطة «كأن المال لا ضرورة له، وكأن كل تجارة يمكن أن تتم عن طريق التبادل»؛ أي كأن هناك حالةً أصيلةً عريقة في القِدم، تُخفي وراء ما يرونه من أحوالٍ جديدةٍ علاقاتٍ أبديةً متَّصِلةً تربط الإنسان بالإنسان. ومع ذلك فليست هناك حادثة في ذاتها، ولا واقعةٌ مجردةٌ مُنعزلة، بل واقعٌ واحدٌ تُحدِّده نظرة الإنسان المُتأمل، كما تُحدِّده سائر الموضوعات المُحيطة به المُؤثِّرة عليه.

إن الشاعر يُمهِّد لكل مشهد نراه ولكل خطوة نخطوها، فلا يكاد يظهر أمامنا شيء إلا وقد ذُكِر من قبل، أو دار الحديث عنه، أو رأيناه في لوحة أو صورة؛ فالرسام قد أعدَّ لوحاتٍ تخطيطيةً تُعطينا فكرة عن القلعة قبل أن ندخلها، وصور الوحوش المُعلَّقة في مكان العرض في السوق تُمهِّد لحادث النمر والأسد، وتسلبه عنصر المفاجأة إلى حدٍّ كبير. حتى الحريق المُفزِع لم يعُد يُفزِعنا كثيرًا؛ إن العم قد وصفه من قبل وأفاض في وصفه، وكل ما يرُوعنا منه هو التذكر الأليم. والأميرة ترى النظام والفعل الدائب في كل ما تراه، والحارس يُمجِّد التناسق والكمال في الكون الكبير؛ كلاهما يرى الحالة الأصلية في الوجود، ويعرف

[٣] راجع في هذا كله إميل شتيجر في كتابه جوته، الجزء الثالث، ص١٨٥ وما بعدها.

أن المثال قائم وراء الظواهر، والثبات باقٍ وراء التغير، والنظام أسبق من الاضطراب. حتى الحادثة التي كان ينبغي أن تُفاجئنا لم تعُد تُثير فينا شيئًا من المفاجأة، فلا يكاد النمر يُفلت من قيده ويُهدِّد الأميرة وتابعَها «هونوريو»، حتى نجد جوته يُؤخر أثر المفاجأة ويقول: أبصراه يقفز نحوهما، على نحو ما رأياه منذ قليل. فلولا صورته التي أبصراها على اللوحة في الطريق لما شعرا بكل هذا الخوف نحوه، ولما «قتلاه بغير داعٍ»، ولكن حارسته هي التي ستُفجَع فيه، وسنعرف من بكائها أنه كان نمرًا أليفًا، لو تُرِك في حاله لتمدَّد على الأرض في سكون.

وتقترب الجماعة من القلعة، ونقرأ عن وقت الظهيرة هذه الكلمات: «على الأُفق الرحيب رقد سكون صافٍ، على نحو ما هو مألوف في ساعات الظهيرة، حين كان القدماء يقولون إن «بان» ينام، وإن الطبيعة كلها تحبس أنفاسها حتى لا تُوقِظه من نومه.» نظرة إلى الأمام والتفاتة إلى الخلف، فكرةٌ وهَّاجة ثم إذا بنا أمام الكمال التام، نُواجِه الوجود الساكن في ذاته، الطليق من كل زمان. إن جوته لا يقول كلمةً واحدة تتجاوز حدود الصورة المحدودة، ومع ذلك فنحن نُحسُّ كأننا عرقٌ ينبض في جسد الطبيعة الكبير، أو كأننا ننمو مع الكون الهادئ المُتجدد حتى نُدرِك القمة. ومع ذلك فهذه اللحظة التي نشعر فيها بالسر الخالد لحظةٌ مُنعزلة، كأنها جزيرةٌ وحيدة. إن الخطر يتهدَّدها من الخارج، وما نُسمِّيه بالعناصر يقف لها بالمِرصاد، ولا تكاد الشمس تُفارق سَمْتها الأعلى حتى يثور هذا الشيء المُوحش المُتوحش؛ فالحريق يندلع، والرعب يمدُّ ظله على الطبيعة المسالمة، ولكن الطبيعة لا تُفارق سلامها؛ فالنفس وحدها هي التي أصبحت عاجزة عن التجاوب معها، غارقةً في بحر السواد والاكتئاب. إن قُوى العناصر الشريرة تبدو كأنها اتَّحدت مع بعضها؛ فلا تكاد النار تشبُّ حتى تفزع الوحوش من أوكارها. إن النمر يقفز متَّجِهًا نحو الجماعة كأنه رسول النيران إليهم، ويُسرِع هونوريو على جواده يريد أن يلحق به، «فيُصيب الوحش في رأسه برصاصة من مسدسه، فيسقط صريعًا، ويتمدَّد بطوله على الأرض، ويكشف عن القوة والرعب التي لم يبقَ منها غير جانبها الجسدي.» إن اندلاع العناصر يردُّنا إلى عصر البطولة، فإذا بنا نسمع صدى الفارس الحديدي في هذه الكلمات القصيرة التي تصف هونوريو: «كان هونوريو قد قفز من على ظهر جواده، وركع أمام الحيوان، وراح يُسكن اختلاجاته الأخيرة، في حين أمسكت يده اليمنى ببندقيته. كان الشاب جميل الطَّلعة، وكان قد وثب مُندفعًا إلى الأمام كما اعتادت الأميرة أن تراه في ألعاب الرماية والمُصارعة.»

غير أن القصاص لا يقف عند هذا المشهد البطولي، ولا يريد أن يصف الصورة من أجل الصورة وحدها. وإذا كان في الأقصوصة كلها يقتصر على المَشاهد الخارجية، فهو لا شك يُحاول أن يكتم عنا الكثير من لواعج الباطن وأسراره. إن الحديث الغامض بين هونوريو والأميرة يتبع مباشرة، لا يكاد يُشير بغير التلميح إلى الحب المعذَّب الذي يُضمِره لها، والذي يُحاول بالسفر البعيد أن يُسيطر عليه مثلما سيطر على الوحش الكاسر منذ قليل. إن حديثه المُتحفِّظ المُستقيم معها يُخفي عذابه الدفين، والكلمة التي يقولها تُشير إلى الرغبة التي لا يملك الإفصاح عنها، والورع الذي يسُود هذا المشهد كله يجعل الفارس الجميل يُطبِق شفتَيه على حبه اليائس. إنه يظل راكعًا أمامها برغم إلحاحها عليه أن ينهض على قدمَيه، كما يُجيبها «مُلتهِب الوجنتَين»، ولا يفُوه بكلمة تزيد على ما يقتضيه واجب الاحتشام، ويمتدُّ ظل الاكتئاب على وجهه بدلًا من فرحة الشباب، «ثم يقف على قدمَيه وهو يتفكَّر».

إن هونوريو، الراكع أمام النمر، لا الواقف وقفةَ الظافر المُنتصر، قد روَّض العنصر الشرير في الحيوان، كما قيَّد اللهب المشبوب في صدره، ومع ذلك فإن المشهد البطولي يعجز عجز العاطفة المُحتدمة في قلب الشاب عن التعبير عن فكرة الكمال الأخلاقي عند جوته. لقد غلبت العاطفة حقًّا، ولكنها لم تسكن سكون السعادة والصفاء. إن على وجه الشاب ظل اكتئاب، ووجوده قد تمزَّق وانشقَّ على نفسه، ومع ذلك فسوف نلمح شبح ابتسامة على شفتَيه.

ويغيب عنا هونوريو بعد هذا المشهد أو يكاد، فلا نعرف ما يُحِس به عند رؤية المرأة الباكية فوق جثة النمر، ولكن لعله كان يُؤنِّب نفسه ويُحاسِبها على بطولة لم تكن هناك حاجة إليها. إن الخوف والإقدام هما اللذان خلقا الخطر الموهوم، فها نحن نعلم من شكوى المرأة أن الوحش الكاسر كان صديقًا للبشر، وأن صحبته لحُراسه ضرورية ونافعة: «لنا، لنا نحن جاء الطعام من الآكلين، والريُّ العذب من الأقوياء. لن يكون شيء من ذلك. وَيْلي! وَيْلي!» كلمات كأنها تُتلَى من العهد القديم، من سِفر أيوب أو سِفر القضاة، مفعمةٌ بالرهبة والخشوع، لا يُطلِقها واعظٌ على مِنبر، بل امرأةٌ مفجوعة تحت قبة السماء، في جو الشمال المُعتِم.

وتُبعَث عقيدة طواها النسيان، وتنبثق مقاييس تقادَم عليها الزمان. تدعو الإنسان إلى التأمل، لا في هذه الفكرة أو تلك، ولا في هذا الفعل أو ذاك، بل تضع الأصول التي تقوم عليها الحياة نفسها موضع السؤال.

وهكذا يأخذ جوته بأيدينا، في حذر وتدرُّج، إلى عالم الشرق القريب من المَنبع الأصيل. ثم يظهر الزوج على مسرح الأحداث، ويُعِيد الشاعر خطبته الشاعرية العالية التي تكاد تقترب من القصيدة، وفيها يُمجِّد الخالق ويُسبِّح بحكمته. وحين يتردَّد هذا الشعر — هذه الأم القديمة الطيِّبة للجنس البشري — في أسماعنا، نُدرِك كم تحتاج العصور الحديثة إلى أن تُجدِّد شبابها من إكسير الحياة؛ من نبع الشعر.

لكن بعث النثر من جديد هو في الحقيقة عَودٌ به إلى مبدئه القديم. إن الزوج يتحدَّث عن ملائكة وأنبياء وعمالقة وأقزام وأحجار ونباتات وحيوانات وبشر في صورٍ بدائيةٍ عريقة في القِدم، تُوقِظ في نفس الإنسان الأوروبي الحديث من الحيرة والخشوع ما تُوقِظه فيه آثار حضارات وثنية قديمة غامضة، لكن كلماته ترنُّ في الآذان التي لديها الاستعداد لسماعها وكأنها كلماتٌ مألوفة. إن الرجل يتحدث حديث العارف عن جبروت العناصر، وجلال الجرانيت، كما يتحدَّث عن القوة الخلَّاقة الكامنة في المثال الأول والنموذج الأصيل، الذي يطبع صورته على ما لا نهاية له من الظواهر والأشياء (لنذكُر هنا رأي جوته المشهور في الظاهرة الأولى Das Urphanomon التي تُقربه من أفلاطون في نظريةِ مُثُله، كما تُقربه من أفلوطين في نظرية الفَيض عن الواحد). إنه يُحيِّي النظام الذي يسُود الطبيعة مِثلما يسُود في جو البلاط والقصور. هكذا يُحوِّل حديثه تيار السخط أو الخوف إلى الخضوع والتأثر. إن خطبته تعُود بنا إلى النبع الأول الذي يغترف منه البشر من آلاف السنين. إنها تمنحنا ما كنَّا نملكه ثم نسيناه أو تنكَّرنا له أو جهلنا قيمته، بل إن صورة الرجل والمرأة تعُود بنا إلى عالم الشرق القديم، وكأنهما رسولان يُبشِّران بذلك الإنسان الفطري المُنتشي بخمر الحكمة، البعيد عن العقل والفكرة، القريب من القلب والإيمان. ونذكُر قول جوته في أُولى قصائد الديوان الشرقي، هجرة:

هنالك حيث الطُّهر والحق،
أريد أن أقود أجناس البشر
إلى أعماق المَنبع الأصيل،
حيث كانت لا تزال تتلقى من الله
وحي السماء بلغات الأرض،
ولا تُحطِّم الرأس بالتفكير؛
حيث كانت تُبجِّل الآباء،

وتتحاشى كل خدمة غريبة.
أريد أن أبتهج بحدود الشباب:
الإيمان رحب، والفكرة ضيِّقة،
حيث كان للكلمة شأنها الخطير؛
لأنها كانت كلمة تنطق بها الشفاه.

ويُصاحب الطفل كلمات أبيه على نايه الناعم العذب، بلحنٍ «ما هو في الحقيقة بلحن»، و«سلسلة من الأنغام لا تخضع لقانون». وبعد العنصر الشرير في الحريق وطلقات الرصاص، يأتي العنصر الصديق في الموسيقى، لا ليُفسِد أو يُدمِّر، بل ليُسعِد ويُحرِّر. وإذا بالأب ينتزع الناي من يد ولده الذي يصاحب عزفه بهذه الأبيات:

من المغارات، في الحُفَر،
أسمع أنشودة النبي.
الملائكة ترفُّ لتُنعِشه،
فهل يُحِس الطيِّب بضيق؟
الأسد واللبؤة يطوفان حوله يتمسحان فيه.
نعم، فالأغاني الناعمة التقية
قد أحدثت فيهما هذا الأثر!

وتدور هذه الأبيات حول حكاية النبي دانيال التي ذكرها الأب في خطبته. وكما يعُود بنا اللحن إلى النبع الأصيل، يعُود جوته كذلك ويغترف من نبع ذكرياته القديمة. ففي مذكراته المعروفة باسم «شعر وحقيقة»، نجد هذه العبارة: «دانيال في مغارة الكهف في موزر.» (وقد كان هذا هو عنوان ملحمة نثرية ظهرت في عام ١٧٦٣م، أثَّرت أعظم تأثير على وجدانه الشاب، وأثبت البحث الحديث على يد إرنست بويتلر في مقاله «أصل ومضمون أقصوصة جوته»، أن بعض تفاصيل مَشاهد الأقصوصة، بل بعض أجزاء أناشيدها، تُطابق صفحة العنوان في طبعة الملحمة التي أشرنا إليها، والتي وجدها أمامه وهو بعدُ صبيٌّ.)

ها هو الشيخ يعُود إلى طفولته الحالمة، حيث لا يعرف الزمن ولا التعب، ولا يسأل من أين ولا إلى أين. دانيال يُصلي في جبِّ الأُسود، والأسد راقد في القلعة. مسافة القرون تُمحى. ما يكون اليوم قد كان دائمًا. الأسد واللبؤة يطوفان رائحَين غاديين، ويتمسَّحان بالنبي

الذي وجد في الله مأواه، واستغرق في الصلاة فأَمِن شر الأسد. ومن الحب يُشرِق نور الإيمان والأمل. في مقطوعةٍ غنائية يصعب أن نجد أرق منها في أشعار جوته:

لأن الخالد يحكم فوق الأرض
على البحار تسُود نظرته،
على الأُسد أن تصير حُملانًا،
والموجة ترجع إلى الوراء.
السيف الناصع يجمد في الغِمد.
الإيمان والأمل يتحقَّقان.
معجزٌ هو الحب،
الذي يتكشَّف في الصلاة.

وبعد هذه المقطوعة تسُود سكينة تُذكرنا بساعة الظهيرة التي مرَّت منذ حين. إن العالم يبدو من جديد في غاية كماله، وكأن بركة هذه الأبيات الشهيرة في «الديوان الشرقي» قد حلَّت عليه:

الشرق لله،
والغرب لله.
أراضي الشمال وأراضي الجنوب
تستريح آمنةً في كف الرحمن.

لَكأن الهم والخوف قد زالا حين لفَّهما سرُّ الطمأنينة التي تغمر الأرض وما عليها: «بدا كأن الحاضرين قد نسُوا الأخطار المُحدِقة بهم؛ الحريق من تحتهم، ومن فوقهم الأسد الهادئ هدوءًا مُريبًا.»

الطفل يُنشِد أغنيته. إنها بالنسبة للأمير وصحبه من رجال البلاط لا تزيد على أن تكون شعرًا وموسيقى، ولكنهم لا يريدون ولا يستطيعون أن يستسلموا لسحرها.

لقد أنشد الطفل منذ قليل:

وهكذا تم الأمر.

فهل يكون في وُسع الشعر أن يصبح فعلًا؟ وهل تستطيع الأغنية أن تُحقِّق الخلاص الذي تُبشِّر به؟ إن الطفل يعيش في الزمن الحاضر وحده. المستقبل القريب بالنسبة له

حاضر، مثله في ذلك مثل الماضي البعيد. وكل ما يتعلق بالزمن من انتظار وتصميم، ومن إقدام وحذر، يُواجهه الطفل بابتسامته. أما نحن، قُراءً وشهودًا، فدائرون مع الزمن، مُقيَّدون بقيده.

وهنا ينصرف الأمير وحاشيته في أثره، وقد يبدو انصرافه في هذه اللحظة الحاسمة أمرًا غريبًا، ولكن القصاص يقصد إلى ذلك قصدًا؛ لكي يُمهِّد للخاتمة الوديعة التي تبزغ كالوردة من بين الأوراق الخضراء (على حد قوله لإكرمان في ١٨ يناير ١٨٢٧م).

وتلتقي الأم وولدها في أثناء صعودهما إلى القلعة بهونوريو الذي راح يتطلَّع إلى الشمس في سكون: «أنت تتطلَّع إلى السماء. حسنًا تفعل. هنالك يستطيع الإنسان أن يفعل الكثير. أسرِعْ فحسب. لا تتردَّد، فسوف تتغلَّب، ولكن تغلَّبْ على نفسك أولًا.»

لقد ترك الصراع مع النمر وراءه، ولحظة البطولة لم يعُد لها الآن مكان. رأته الأميرة جميلًا وهو يثبُ على النمر ويصرعه، ولكن المرأة تراه الآن أشد جمالًا وهو يتطلَّع نحو الشمس الغاربة؛ ذلك أن جمالَ العازفِ الصادِّ أروعُ وأسمى من جمال البطل الفارس المكدود. وها هي نفسه تشعُّ بالخلاص والسلام، ويغمرها نورٌ غير مُتناهٍ.

إن أخطار العاطفة الجامحة في قلب هونوريو شبيهة بالأخطار التي تتهدَّد الطبيعة الآمنة من جانب القُوى الأولية المُدمِّرة. والجمع بين المرأة الحكيمة حكمة الشرق وبين الشاب الغارق في الحب اليائس المستحيل، إشارةٌ إلى أن التقوى وحدها هي التي تستطيع أن تقهر القُوى الأولية، سواء كانت تُهدِّد الإنسان من الداخل أو من الخارج. إن النفس الإنسانية هنا في حاجة إلى أن ترجع إلى حالتها الأصلية، أن تقترب من مَنبعها الأول، أن تتمسَّك بهذا الشيء الخالد الذي يبقى وراء التغير، ويصمد برغم التاريخ. إن وجه هونوريو الجميل يُعبِّر عن الزهادة والصدود التي تُطالعنا كثيرًا في أعمال جوته المُتأخرة، وبخاصة في «الأنساب المختارة»، وفي الجزء الثاني من روايته الكبرى «فيلهلم ميستر» المعروف بـ «سنوات التجوال». «ازهد وصُد. إن الصدود عليك واجب.» هو البيت الذي يُعبِّر به جوته عن حكمة شيخوخته، وليست الزهادة والصدود، ولا العزوف والإباء، من أفعال الإرادة، بل هي نتيجةٌ تأتي من مشاهدة الحقيقة، وتصل إليها النفس بغير مشيئتها، نتيجةُ رؤية الكل، سواء تمثَّل ذلك الكل في حياة الإنسان نفسه، أو في النظام الخالص الذي يسُود الكون؛ أي رؤية الله التي يُعبِّر عنها جوته بكلمة الورع.

ويبدأ سرُّ الأمر الذي «تم من قبل» في الظهور، ويحتفل به الصبي، ويُباركه بأغنيته البريئة السعيدة. إن أرقَّ المخلوقات ليس أضعفها، وجبَّار الوحوش ليس هو أقساها، ولولا

أن كل موجود يستطيع أن يرتدَّ إلى حالة البراءة الأُولى لما استطاع الطفل أن يجرَّ الأسد وراءه! إن ترويض قُوى العناصر عن طريق الموسيقى قد سبق إليه «موتسارت» في أوبراه «الناي السحري»، التي كان جوته يُحبُّها ولا يملُّ من الثناء عليها:

نحن نتجوَّل تحت سلطانِ النغم
فرِحِين خلال ليل الموت المُعتِم

ويتردَّد صدى هذه الكلمات في السطور التي تتابع الطفل لدى خروجه من مغارة السر إلى النور، «بعينَين لامعتين راضيتين، يتبعه الأسد بخطواتٍ بطيئة، ولكنها تكشف فيما يبدو عن ألمٍ يُعاني منه.»[٤]

وتتكرَّر موسيقى الأنشودة الراقصة في الواقع، ويخطر الموكب الصغير بين الأشجار، كأنه حفل تكريم للروح الإلهية التي ترفُّ مُقبِلةً من الأعالي، مُعلِنةً الإيمان والأمل والمحبة.

الأسد يتبع الطفل، ولكنه يتبعه بمشقة. لقد دخلت شوكة في راحة قدمه اليمنى. إنه، وهو الوحش الكاسر، في حاجة إلى من يُساعده. ويملكنا التأثر، ونتذكَّر حكاية أندروكليس والأسد. ويعود الطفل إلى الغناء مُنتصرًا مُجيدًا كأنه بطل تم له النصر حتى على بطولته، واستمرَّ الطفل يُصفِّر في الناي ويُغنِّي حالمًا مضيئًا بلا هدف:

وهكذا يمضي الملاك المُبارَك
مع الأطفال الطيِّبين،
ويُسدِي إليهم النصيحة،
يمنع الشر عنهم،
ويُشجِّع على الفعل الجميل.

تفاوتت أحكام النُّقاد ومُؤرِّخي الأدب في شأن الأقصوصة تفاوتًا كبيرًا؛ فالناقد الكبير «فريدريش جوندلف»[٥] يغضُّ من شأنها إلى أبعد حد. إنها في رأيه تنتمي إلى ذلك النوع من «الأشعار التربوية المُطلَقة»، التي تنبع من الفرحة الجمالية بالتعبير عن دافع من الدوافع

[٤] راجع في هذا إميل شتيجر، نفائس اللغة الألمانية، زيورخ ١٩٤٨م، الطبعة الثانية، ص١٦١.
[٥] في كتابه عن جوته، برلين ١٩١٨م، ص٧٤٣.

بما يُطابِق أحد فنون الأدب، لا من رجفةٍ نفسية أو هدف من الأهداف. وحجته في هذا أن جوته اختار لقصته عنوانًا مجردًا، أضاف إليه أداة التعريف ليدلَّ بذلك صراحةً على أنه يريد أن يضع أمام القُراء والكُتاب الأنموذجَ الأصيل لفنٍّ أدبي بعينه، لا أن يُعبِّر عن تجربةٍ حيةٍ فاض بها وِجدانه.

ويُلاحظ الكاتب الفرنسي «أندريه جيد» في مذكراته (١٩٣٩–١٩٤٢م) أن الأقصوصة سخيفة سخفًا لا يُصدَّق!» فقد غلبت عليها الصنعة، مع أن العمل الفني لا يتم بمجرد تطبيق قواعد جيدة، يمكن في حالة الأقصوصة بالذات أن تُوضَع موضع الشك والنزاع. ثم يقول إن جوته لم يكن ليكتب مثل هذه الأقصوصة في أيامنا هذه.

وإلى جانب هذه الأحكام التي تُقلِّل من قيمة الأقصوصة، نجد أحكامًا أخرى يتفاوت حظها من التعمق والحماس؛ فالباحث الشهير المُتخصص في جوته، وأعني به إرنست بويتلر، يريد أن يصل بهذا العمل الصغير في حجمه، الكبير في قيمته، إلى جذوره الدينية، أو بتعبيرٍ أدقَّ إلى جذوره المسيحية: «إني أرى في الأقصوصة تعبيرًا عن مَسعى جوته، لا بل عن جهده في تحويل الإيمان المسيحي إلى ورعٍ طبيعي. إن الأمر هنا أمر تحوُّل في التدين نفسه، لا يُضحي فيه مع ذلك بالمحتوى الأصيل، ولا بقوة العقيدة أو قوة الخلق.» ويُجمِع هذا الناقد مع غيره (من أمثال إميل شتيجر، وباول شتوكلين، وكورت ماي) على ما في هذا العمل المُتأخر من أعمال جوته من تميُّز وعمق وطرافة.

أما جوته نفسه فقد أحب أقصوصته دائمًا. لقد صحبته زمنًا طويلًا من حياته، ولم ينسَها وهو على عتبة الموت في أحاديثه المشهورة مع صديقه الأمين إكرمان؛ فإكرمان يروي لنا حديثه مع جوته في ٢٩ يناير ١٨٢٧م، وكيف أخذا يُفتِّشان معًا عن عنوانٍ يصلح للأقصوصة، ويُورِد كلمته المشهورة عن جوهر الأقصوصة بوجهٍ عام: «عندئذٍ أخذنا نتحدَّث عن العنوان الذي ينبغي أن تحمله الأقصوصة، وأدْلَى كلٌّ منا باقتراحاته، فكان بعضها مُناسبًا للبداية، وبعضها الآخر للخاتمة، ولكننا لم نجد واحدًا منها يصلح للأقصوصة في مجموعها. قال جوته: هل تعرف؟ نريد أن نُسمِّيها «الأقصوصة»؛ إذ ما هي الأقصوصة إن لم تكن حادثة لم يُسمَع بها من قبل؟ هذا هو مفهومها الحقيقي، وأكثر ما يُنشَر في ألمانيا باسم الأقصوصة ليس في الواقع شيئًا من ذلك، بل مجرد حكاية أو ما تشاء له من أسماء. بهذا المعنى الأصلي للحادثة التي لم يُسمَع بها ترِد الأقصوصة كذلك في «فيلهلم ميستر (سنوات التجوال)»».

كما نجد جوته في حديثٍ آخر مع هذا الصديق الوفي، في الثامن عشر من شهر يناير عام ١٨٢٧م، يُعبِّر عن الفكرة الرئيسية في الأقصوصة بقوله: «كانت مهمة هذه الأقصوصة

أن تُبيِّن كيف أن الوحش الذي لا يُقهَر يمكن ترويضه في أغلب الأحيان عن طريق الحب والورع خيرًا من قهره بالعنف والقوة. وهذا الهدف الجميل، الذي يُعبِّر عنه في الطفل والأسد، هو الذي حفَّزني على كتابتها، هذا هو المثال، هذه هي الزهرة. إن نضارة العرض الواقعي الخالص موجودة لهذا السبب، وهي لهذا السبب أيضًا ذات قيمة؛ إذ ما هو الهدف من الواقع لِذاته؟ إننا نُحسُّ نحوه بالفرحة عندما يُصوَّر تصويرًا صادقًا، بل إنه يستطيع أيضًا أن يُعطينا عن بعض الأشياء معرفة أكثر وضوحًا، ولكن الكسب الحقيقي الذي تجنيه طبيعتنا العالية يكمن في المثال وحده، الذي انبثق من قلب الشاعر.»

جوهر الأقصوصة إذن هو هذه المثالية التي ليست مجرد فكرة ذهنية، بل عاطفة يُحِس بها القلب، وإن كان أسلوب جوته المُتحفظ الذي اتَّسمت به كتاباته في شيخوخته لا يُعبِّر عنها تعبيرًا مباشرًا، بل يُحوِّلها عن طريق الصور الشاعرية إلى رموزٍ مُوحية. هنا يكمن سحر هذا العمل الذي يتفتَّح من خُضرة الواقع الناضرة بضرورةٍ فنيةٍ قاهرة، فيُؤثِّر في نفس القارئ بما يرويه من أحداثٍ عجيبة تأثير الأساطير والخرافات. ليس فيه شيءٌ يُثير العَجب بمفرده؛ فكل شيء قد مهَّد له كما رأينا بعناية، حتى الرعب الذي يمكن أن نشعر به قد سبقته المخاوف التي تنسجها ملكة التخيل، فأعدَّتنا لتلقِّيه. كل صغيرة فيه قد حُدِّدت تحديدًا موضوعيًّا دقيقًا، ولكن الكل يُبهِج ويُدهِش كما تفعل المعجزة.

إن الباعث الرئيسي في الأقصوصة باعثٌ ديني بالمعنى الواسع لهذه الكلمة؛ إنه التغلب على القوة والبطش عن طريق المحبة والورع. الشخصيات المُعبِّرة عنه — الرجل والمرأة والطفل — تبدو كأنها قادمة من أرض الشرق، واللغة التي تتحدَّث بها لغة الطفولة والطبيعة والتوراة. إنها تظل في عالمنا التاريخي شخصياتٍ سابقةً على التاريخ. إن صلتها بالله والطبيعة صلةٌ مباشرة. لقد قيَّدت العناصر الأولية بالتقوى والغناء، فألِفَتها، ولم تعُد بالنسبة لها قُوًى شيطانيةً مُعادية: «ولكن الأسد دخل غابة النخيل، بخطوةٍ جادَّة راح يتوغَّل في الصحراء. هناك يسُود جميع الحيوان، وما من أحد يقِفُ في وجهه. ومع ذلك فالإنسان يعرف كيف يُروِّضه، وأشد المخلوقات ضراوةً يرهب صورة الرب التي جُبِل الملائكة أنفسهم على مثالها».

إن الورع هنا معناه التجاوب والانسجام مع كل ما هو حي، وليست المعجزة الحقيقية في ترويض الأسد، بل في نقاء القلب وطهارته، وفي سلطان الأغنية على الوحش الكاسر. إن القُوى الطبيعية العمياء تستسلم لسحر الشعر والغناء، حتى ليستطيع الطفل البريء أن يجرَّها وراءه في هدوء: «بدا الطفل في صفائه كأنه قاهرٌ مُنتصر. أما الأسد فلم يبدُ

كالمغلوب؛ لأن قوَّته ظلَّت كامنةً مستورة فيه، بل ظهر في صورة الوحش المروَّض الذي استسلم لإرادته المُسالمة.»

إنه الاستسلام الذي ينبع من الإجلال للطبيعية، والخشوع أمام الله. ومن هنا كانت معجزة الأقصوصة، كما يقول بنو فون فيزه،[٦] في أنها تُعِيد يومًا من أيام الخلق الأولى إلى عالمنا الحديث، وتُرينا العالم بعينَي آدم كما رآه لأول مرة. إنها تعكس القوة العالية التي تتحكَّم في ضمير الإنسان وتُوجِّه مصيره، كما تسُود الطبيعة الحرة العذراء. إن طاقتها الخلَّاقة تسري في كل موجود؛ في الصخرة والشجرة، وفي الحيوان والإنسان. هذه القوة الحقَّة الخالدة تجري في جميع مظاهرها على اختلاف صورها؛ في المجتمع والطبيعة، في عالم الصخور وعالم النبات. إن نظام التكوين يكمل درجةً درجة؛ من الصخرة إلى النبات، ومنها إلى الحيوان فالإنسان. كل مرحلة تتهدَّدها أخطار العناصر المُدمِّرة. وفوق الجميع يسبح الروح الخالد، ثابتًا وراء التغير، كاملًا وراء النقصان؛ ذلك لأن:

الخالد يحكم في الأرض،
وعلى البحار تسود نظرته.
على الأُسود أن تصير حُملانًا،
والموجة تتراجع إلى الوراء.
السيف الناصع يجمد في غِمده،
والعقيدة والأمل يتحقَّقان.
معجزة هو الحب،
الذي يتكشَّف في الصلاة.

إن عالم جوته كله حاضر في هذه الأقصوصة الصغيرة: الطبيعة والإنسان في علاقتهما الخالصة، العناصر الأولية والروح التي تُشكِّلها، العاطفة المُلتهِبة والصدود الأبي، تلاقي الأضداد من تغُّير وثبات، وحياة وموت، ومظهر وحقيقة، وسماح وجبروت، وشباب وشيخوخة. كل هذا يُعبِّر عنه جوته المُربِّي — وذلك هو طابعه الأصيل — في أسلوبه الهادئ البسيط النبيل، بينما ينظر النَّسر الطيب من علٍ، فإذا بالعالم وكأنه كُرة نحملها

[٦] في تعليقه على الأقصوصة، في أعمال جوته الكاملة، المجلد السادس، طبعة هامبورج، ص٧١٥.

بين أيدينا، ونتذكَّر أغنية لينكويس حارس البرج وهو يقول في الفصل الخامس من القسم الثاني من فاوست:

وُلدتُ لأرى،
خُلقتُ لأُشاهد
موكلًا بالبرج.
يُعجبني العالم،
أتطلَّع بعيدًا،
وأنظر قريبًا
للقمر والنجوم
والغابة والغزال،
وأرى في كل شيء
الزينة الأبدية.
أيتها العيون السعيدة،
كل ما رأيته،
وليكُن ما يشاء،
لقد كان جميلًا!

تفسير الحكاية

سجَّل صيف عام ١٧٩٥م حادثًا نادرًا في تاريخ الأدب الألماني، بل لعله من أندرها في تاريخ الآداب العالمية بوجهٍ عام، ونعني به انعقاد أواصر الصداقة الوطيدة بين الشاعرَين العظيمين جوته وشيلر.[١] كان شيلر في ذلك الحين قد شرع في إعداد مجلته الشهرية المعروفة باسم «الهورن»،[٢] وكان من الطبيعي أن يطلب من جوته أن يُساهم في تحريرها، فلم يتردَّد الصديق. وكان في نية شيلر أن ينشر في أعدادها الأولى بعض مقالاته الفلسفية، ومقالات صديقه فيلهلم فون همبولت، ولكن كان على المجلة التي تتَّجه إلى دائرةٍ متَّسِعة من المُثقَّفين ألا تقتصر على هذا اللون الجاف من ألوان الكتابة، وأن تُقدِّم من القصص ما يضمن لها الذيوع والانتشار. ووعد جوته في أول الأمر أن يُقدِّم قصةً قصيرة، ما لبثت أن تحوَّلت إلى مجموعة من القصص، في إطارٍ روائيٍّ طويل.

كان جوته في ذلك الحين مشغولًا بإعداد الجزء الأول من روايته الكبرى فيلهلم ميستر، وهو المعروف ب «سنوات التعلم»، كما كان في الوقت نفسه مُنكبًّا على إتمام دراساته عن «نظرية الألوان»، ووضع الخطوط الرئيسية في أبحاثه عن العظام، وكان إشرافه على مسرح فيمار يُكلِّفه الكثير من وقته وجهده، فلم يكن هناك مفرٌّ من أن تظل الحكايات القصيرة التي وعد بتقديمها لمجلة «الهورن» عملًا جانبيًّا إلى جانب الأعمال الأخرى التي تشغله،

[١] راجع في هذا الموضوع مقالًا لكاتب السطور بعنوان «الشاعر العاطفي والشاعر الساذج»، نُشر في مجلة الشعر، عدد يوليو ١٩٦٤م.

[٢] Die Horen.

وإن لم ينفِ هذا أنه أقبل على كتابتها في شغف ولذة هما طابع كل قصاص أصيل. وكان أن تجمَّعت كل هذه الأقاصيص في شكل رواية قصيرة على هيئة مُسامرات، سمَّاها بالفعل «مسامرات مهاجرين ألمان»، ووضع الحكاية التي نعرفها في نهايتها.

والمسامرات[٣] — إن جوته لا يترفَّع عن المشاركة في أدب التسلية الذي كان مُنتشرًا في عصره، بل يجد في ممارسة القصة والارتفاع بشكلها والسمو بغايتها واجبًا من أمتع الواجبات — مجموعةٌ من الأحاديث تدور حول أسرة من الأُسَر النبيلة، هاجرت من أحد أملاكها النائية فرارًا من جيوش نابليون الزاحفة. ولسنا هنا بصدد الحديث عن هذه المسامرات،[٤] فلهذا موضعٌ آخر، ويكفي أن نُشير إلى أنها تبدأ بمناقشاتٍ حادَّة حول الثورة الفرنسية، تدور بين مُتعصب لها وساخط عليها، فيُحاول القسيس العجوز الذي يُرافق العائلة، مدفوعًا من البارونة الحكيمة ربَّة الأسرة، أن يُعيد الاتزان والبهجة إلى الحاضرين بحكاياته، وأن يبعد بهم عن القضايا الوقتية ليُوجِّههم إلى قضايا الإنسان الخالدة. إن العجوز يُسلِّي الحاضرين، وبخاصةٍ الشباب منهم، بحكاياته، لا بالمعنى الشائع لكلمة التسلية، من تشتيت البال وصرف الانتباه عن قضايا الساعة المُلِحة، ولكن ليصرفهم عن المُنازعات السياسية العقيمة، والمسائل السطحية العابرة؛ ليعدَّهم لما هو أعمق من مسائل الفكر والشعور. إنه يضرب لهم المثل — وبخاصة في أقصوصة فرديناند الشاب الذي يُكفِّر عن جريمة اختلاس أموال أبيه بالوفاء والتضحية، وأقصوصة التاجر الإيطالي العجوز وزوجته الشابَّة التي يطول غيابه عنها، فتبحث عن الحبيب والصديق في شخصِ مُحامٍ شابٍّ يدفعها بالصوم والصلاة (أي إلى حد كبير بإماته الجسد ومجاهدته كما يقول المتصوفة) إلى أن تقهر نزواتها وتنتصر على ذاتها — أقول إنه بهذه الأقاصيص، التي أخذ

[٣] Unterhaltungen Deutscher Ausgewanderten.

[٤] تُعَد مسامرات المهاجرين الألمان التي ظهرت في مجلة «الهورن» في عام ١٧٩٥م، بدايةَ فن القصة الألمانية القصيرة في القرن التاسع عشر. وليست أقاصيص جوته التالية هي وحدها التي تبدأ من هنا، بل كذلك أقاصيص الرومانتيكيين، إنهم يقتفون أثره، وإذا بنا نرى فيلاند ينشر قصته «هيكسا ميرون» روزنهيم (١٨٠٥م)، وأرنيم «حديقة الشتاء» (١٨٠٩م)، وتيك «فانتازوس»، وكثيرون غيرهم. وأحب الناس الأقصوصة، وعرفوا أهمية هذا الشكل الفني، وأصبحت الحكاية التي سبق إليها «موزايوس»، وجرى فيها على أسلوب عصر التنوير الذي ساد فيه سلطان العقل، عملًا من أعمال الخيال الخالص عند جوته. ومن هذا النبع الصافي اغترف شاعر الرومانتيكية الكبير نوفاليس «فريدرش فون هاردنبرج».

بعضها عن بوكاتشيو، يضرب لهم المثل على الإنسان الذي لا تقوى كارثة من الخارج ولا عاطفة من الداخل على أن تُفقِده توازُنه؛ الإنسان الذي يُحافظ دائمًا على المسلك الهادئ، ويجد نفسه على الدوام مدفوعًا إلى أن يعيش لغيره، ويُضحِّي بنفسه في سبيل الآخرين.

وفي الحكاية التي يختم بها القسيس العجوز مسامراته، نجده يصفُ لنا تلك الحالة التي تفيض بالنعمة والسعادة، والتي ما كان لهذه الشخصيات العجيبة أن تصل إليها لو لم تتغلَّب واحدة منها (الحية) على نفسها، وتُضحِّي بذاتها في سبيل المجموع. إنها تبني من جسدها جسرًا مسحورًا يصل الواقع بالمثال، والحياة بالفن، كما يربط عالم الشاب المُلتهِب بالحب والعذاب، بعالم الزنبقة الفيَّاض بالسعادة والتجانس والكمال. والقسيس بهذا يُحاول أن يكشف عن جوهر الإنسان، كما يُطالبه في الوقت نفسه بأن يكبح جِماح غرائزه، ويعرف حدوده فلا يتعدَّاها.

في أقصوصتَي فرديناند والتاجر العجوز، يحرص الراوي على التزام الشكل، أما في الحكاية فتصبح طريقته في القصة، وقد تحرَّرت من قيود الواقع، لعبًا خالصًا وصورةً خالصة، شيئًا يتعذَّر أن نجد له نظيرًا في فنون الكتابة؛ إذ هو أقرب ما يكون إلى جوهر الموسيقى.

لقد كان جوته في ذلك الحين يقرأ كتابات شيلر الفلسفية، ويرى كيف يُحاوِل الصديق أن يتغلَّب على اختلاط الغرائز وفساد العصر عن طريق الفن والجمال. ولعله قد تذكَّر كلمة صديقه المشهورة التي وردت في رسائله الفلسفية عن التربية الجمالية للإنسان[٥] (الرسالة الخامسة عشرة): «لا يكون الإنسان بكليَّته إلا حين يلعب.» ولكنه رأى كذلك كيف ترك الصديق أرض الواقع، وحلَّق بجناحَيه في مملكة المثال العالية، وكلما ازداد تحليقه تعرَّض لأخطار الحماس والخطابة. ولعله أيضًا قد عرف مِصداق التفرقة التي أقامها شيلر بين الشاعر العاطفي الذي يبدأ من الفكرة والمثل الأعلى، وقد يعود أو لا يعود إلى الواقع — وقد قصد بذلك نفسه — وبين الشاعر الساذج الذي يبدأ من المُشاهد والمحسوس ليصعد درجةً درجة إلى الفكرة والمثال، وقد قصد بذلك صاحبه ومُنافسه جوته.

لقد رفرف هذا بجناحَيه في مملكة الخيال الحرة السعيدة، ولكن حكايته بقيت مغزولة من نسيج الواقع، ضاربةً في جذور المحسوس.

[٥] Die asthetische Erziehung des Menschen.

ظلَّت الحكاية بالنسبة لمُعاصري جوته وللأجيال التالية لغزًا مستورًا، وتتابعت تفسيرات المُفسِّرين تُحاول أن تتغلغل في أسرارها، ولكنه هو نفسه لزم الصمت وآثر الكتمان، فلم يُحاول أن يُفسِّر رموزها بكلمةٍ واحدة. ولم تكد تظهر في مجلة «الهورن» في شهر أكتوبر عام ١٧٩٥م، حتى بدأت محاولات المُفسِّرين، ولم تزَل مُستمرة إلى اليوم.

حاوَل نُقاد القرن التاسع عشر أن يُفسِّروها تفسيراتٍ مجازية، وأن يجدوا في إشاراتها دلالاتٍ سياسيةً تقترن بالثورة الفرنسية وبشخصية نابليون. ورأى نُقاد القرن العشرين فيها رموزًا حاوَلوا في حذرٍ أن يربطوها برموزٍ أخرى تتكرَّر كثيرًا في بقية أعمال جوته، وفي فاوست الثانية بوجهٍ خاص، مثل النور والأرض والماء والفضة والذهب ... إلخ. وصرَّح جوته مرةً لصديقه همبولت (في ٢٧ / ٥ / ١٧٩٦م) بأن الحكاية ينبغي أن تُؤخَذ مأخذ الرموز، لا مأخذ الاستعارة أو المجاز، غير أنه لم يبُح بشيء عن طبيعة هذا الرمز.

والحقيقة أن كلمات القسيس العجوز الذي يروي الحكاية للأسرة المُهاجرة، تُعبِّر عن هذا الرأي نفسه حين يقول: «إنها تُذكِّر بلا شيء وبكل شيء.» فالرمز هنا غنيٌّ بالعلاقات التي تربطه بما يرمز إليه، ولكن العقل لا يستطيع أن يستنفد كنوزه. وربما كان جوته يحمل جزءًا من المسئولية عن الحيرة التي يجد المُفسِّر فيها نفسه بإزاء هذا العمل.

إنه يقول للأمير أوجست فون جوتا ٢١ ديسمبر ١٧٩٥م: «إنني أجد في العمل الذي تمدحونه، والذي لا يستطيع عصرٌ آخر غير العصر الذي نعيش فيه أن يُطلِق عليه اسم الحكاية، كلَّ دلائل التنبؤ ... ذلك لأن المرء يرى بوضوحٍ أنها تتعلَّق بالماضي والحاضر والمستقبل ... على نحو ما سوف ترونه سُموُّكم من تفسيري لها، الذي لا يخطر لي مع ذلك أن أُقدِّمه قبل أن أرى تسعة وتسعين مُفسِّرًا سبقوني إليه!» ولقد حاول ما يزيد عن هذا العدد، وفي مقدمتهم شيلر، أن يستوضحوه سرَّها، ولكنه بقي صامتًا. ومضى على موت شيلر أكثر من ربع قرن، وحاوَل كارلايل أن يستفسر من جوته عن الحكاية التي أُعجِب بها واعتبرها من أعمق أعماله وأكثرها شاعرية. وما من شك في أن جوته كان يودُّ لو استطاع أن يُجيب على سؤال الأديب الإنجليزي الكبير الذي يُحِس أنه يدين له بالكثير، ولكنه لم يجد أكثر من قوله: «إنها قطعةٌ فنيةٌ يندر أن تتكرَّر مرتَين.»

لقد سبق لجوته أن تحدَّث بنفسه عن بعض أعماله، وبخاصةٍ قصائده الغنائية، فكان يذكُر بعض مُلابسات حياته التي ارتبطت بإنشائها، أو يُعِيد مضمونها بعباراتٍ نثرية، أو يُحاول شرحها شرحًا موضوعيًّا، ولكنه كان يحرص دائمًا على ألا يمسَّ سر العمل الفني، وألا «يُفسِّره» بالمعنى التحليلي المعروف من هذه الكلمة. فكل تحليل يُفسِد العمل الفني

الذي ينبغي أن يُنظَر إليه دائمًا ككُلٍّ، وإلا كان الناقد كالطبيب الذي يريد أن يشرح الجسد ليضع يده على سرِّ الحياة فيه، مع أن التشريح لا يكون إلا لميت، بينما القصيدة أو العمل الفني كائنٌ عضوي يفيض بالحياة!

وإذن فليس عجيبًا أن نراه يرفض تفسير الحكاية، ومن يدري؟ فلعله لم يكُن ليستطيع أن يُقدِّم مثل هذا التفسير على الإطلاق.

إن الحكاية تُروى بطريقةٍ موضوعيةٍ جادَّة، وتنتهي بخاتمةٍ لا تخلو من الاحتفال. كلماتها الأولى تنقلنا إلى عالمٍ غريب، يصفه لنا الراوية وكأننا نعرفه: هناك النهر، والمراكبي، والحية ... إلخ. هذا العالم الغريب يبدو كأنه عالم الأحلام. ليست هناك حدودٌ تفصل بين الأرواح والبشر والحيوانات والكائنات العضوية وغير العضوية، إن كل شيء يتداخل في كل شيء، ولكن هذا العالم غير المحدود لا يخلو مع ذلك من القوانين والقيود؛ فهناك قانونٌ يتحكَّم في النهر فلا يقبَل ذهبًا، وفي المراكبي فيعبُر بالمسافرين في اتجاهٍ واحد فحسب، وفي العملاق فلا تكمن قوَّته إلا في ظله، وفي المصباح فيُذيب كل جامد، وفي الزنبقة فتُميت بلمستها كل حي ... إلخ. تُقابل ذلك مثل هذه العبارات التي تسُود الحكاية بأكملها: لقد آن الأوان، إن الخلاص قريب، الشقاء رسولٌ يسبق السعادة، النبوءة قد تحقَّقت. ثم يأتي التحوُّل العظيم في النهاية، فيتَّحد المُتفرق، ويطمئنُّ اليائس، ويتحرَّر المغلول، وتنشأ حياةٌ جديدة بعد أن تلتئم القُوى المختلفة في تجانُس وانسجام.

كل المَشاهد والأحداث تؤدي إلى هذا التحول السعيد، في بناءٍ واضحٍ شديد الوضوح، يظلُّ يتعقد إلى أن يصل إلى هاوية الشقاء (عندما تلمس الزنبقة حبيبها لمسة الموت، ويُفتش الجميع عن وسيلة للخلاص)، ثم يبلغ ذروة السعادة (عندما يتَّحد الحبيبان، وتتحوَّل الحية إلى جسرٍ مُتألق يُفضي إلى المَعبد الخالد). ثلاثة دوافع تخلق التوتر، وتُحرِّك الحدث، وتمضي به إلى الأمام: ما هو نوع الخلاص القريب؟ ما هو مصير اليد التي أصبحت في سواد الفحم؟ ماذا ستفعل الحية؟

أما اليد السوداء فهي أظهر عناصر التوتر. إن العجوز قلِقة على يدها، تخشى أن يحلَّ المَوعد المضروب قبل أن يحمل لها الشفاء. أما الحية فهي تتوارى وراء الأحداث فترة من الزمن، ثم تظهر على مسرحها في شكل دائرة مسحورة تُحيط بالجميع في انسجام ووئام، وتحمل لهم النجاة والخلاص. إنها تجعل من نفسها جسرًا يربط بين الشاطئَين البعيدين، وما أشد افتخارها بذلك! ولكنها سرعان ما تُدرِك أن فِعلها هذا لا يكفي. إنها تُواجه الآن صراعًا باطنًا يُطالبها بأن تتَّخذ موقفًا قد يكون فيه فناؤها؛ فهي لا تستطيع أن تُوحِّد

بين المُتفرقين وأن تبقى مع ذلك على حالها. ليس أمامها إذن إلا أن تُضحِّي بنفسها، وأن تصبح شيئًا آخر لا حياة فيه، فهل هي مُقدِمة على هذه التضحية؟

إن الحكاية البهيجة، ابنة الخيال الخالص، تنسج الجمال لموقفٍ أخلاقي قد يكون من الصعب علينا أن نتوقَّعه في هذا المقام، ولكننا سنتبيَّن في النهاية أن تضحية الحية ما هي إلا عنصر من عناصر الخلاص الشامل، وأن مشكلة اليد المُهدَّدة بالزوال ستجد الحل الطبيعي لها من خلال التحول الإجمالي الذي يُبشِّر الجميع بالنجاة. وهكذا يجد كل شيء مكانَه المرسوم، ويرتبط أصغر الأشياء بأعظمها شأنًا، في وحدةٍ مُنسجمةٍ رائعة الانسجام. ما من عنصر يمكن الاستغناء عنه، ولا من حدثٍ يمكن إغفاله؛ فلا بد للحية من أن تُضيء المَعبد وأن تلتهم الذهب؛ لكي تتمكَّن الزنبقة من الاجتماع بالملوك في مَعبدهم المقدس، ولكن لا بد لها في سبيل ذلك من الأنوار التائهة التي تتولَّى عنها التهام الذهب، ولا بد لهذه الأنوار التائهة بدورها من عبور النهر. فكل حدث يفترض الحدث الذي يليه، حتى إذا قام كلٌّ بدَوره — حتى الأنوار العابثة ظهر أنها لا تخلو من طيبة القلب! — واتَّحد الجميع في نهاية الأمر، زال القانون القديم، وغمرت الجميعَ حالةٌ من السعادة الخالصة، لا وجود لها إلا في الحكايات والأحلام والأساطير.

كل الأحداث التي تصفها الحكاية تظهر في صورٍ حيةٍ بهيجة الألوان؛ فالصقر الذي يرفُّ في الهواء تنعكس عليه أشعة الشمس الغاربة فتكسوه بلونٍ قرمزي، والجسر يشعُّ في ظلمة الليل كأنه عقدٌ مُتألق من النجوم، وحركة المَعبد والشخصيات تتمُّ في مكانٍ شفَّافٍ منسوج بخيوط الأحلام. هذه الصور والشخصيات جميعًا يغمرها «النور المقدَّس»، كما يُحدِّد اتجاهها ومصيرها، أما الذهب فينعكس في رمز الفاكهة. وكل هذه موضوعاتٌ رمزيةٌ ترِد في صورةٍ مشابهة في «فاوست الثانية»، وفي سواها من أعمال جوته.

فالسر المكشوف الذي يتحدَّث عنه العجوز تعبيرٌ يتردَّد في كتابات جوته، فتتناوله إحدى قصائده الفلسفية التي تحمل عنوان «أبيريما»،[٦] وتُلخِّص تأملاته في الطبيعة والحياة:

عليك عندما تتأمَّل الطبيعة
أن تنتبه إلى الواحد كما تنتبه إلى الكل.

[٦] راجع أعمال جوته، طبعة هامبورج، المجلد الأول، ص٣٥٨.

لا شيء في الداخل، لا شيء في الخارج؛
لأن ما هو في الداخل فهو كذلك في الخارج.
فضَعْ يدك بغير ما تردُّد
على السر المقدَّس المكشوف.
ابتهِجوا بالمظهر الحق
وباللعب الجاد.
ما من حي في واحد،
إنه على الدوام كثير.

كما يقول في الديوان الشرقي على لسان حافظ:

سرٌّ مكشوف

سُموُّك، يا حافظ المقدَّس،
اللسان الصوفي،
ولم يعرفوا، وهم علماء الكلام،
قيمةَ الكلمة.
أنت عندهم مُتصوف؛
لأنهم يحسبون أن الطيش عندك،
ويشربون على اسمك
خمرهم العكرة،
لكنك مُتصوفٌ نقي؛
لأنهم لا يفهمونك.
أنت الإنسان المُبارَك
وإن لم تكن تقيًّا!
وذلك ما لا يريدون
أن يعترفوا لك به.

ويقول في «الحِكم والتأملات»: إن من تبدأ الطبيعة في إماطة اللثام عن سرِّها الظاهر المكشوف له، يُحِس بشوقٍ غلَّاب إلى الفن أنبلِ مُفسِّريها.

ومطالعة وجه الله ورؤية ما وراء العالم في كل ما هو أرضي مباشر، هو فعلٌ صوفي أو سرٌّ مكشوف لا يتفتَّح إلا بالدهشة؛[٧] فالدهشة هي الطريق الوحيد الذي يُمكِّننا من أن نرى الوجود الحق فيما يُعطى لنا كل يوم، وأن نعرف السر الذي يربط الشيء الصغير بالروح الكوني الكبير. والدهشة التي تهزُّ كياننا نوعٌ من الارتعاش، يُعبِّر عنه فاوست في الجزء الثاني من المأساة فيقول:

على أنني لا أُفتِّش عن نجاتي في الجمود،
الارتعاش هو خير ما في وجود الإنسان.

(فاوست الثانية، البيت ٦٢٧٢)

ولكن أمثال هذه الصور الرمزية تتكشَّف فتصبح استعارات، كما نرى في الحية عندما تتكوَّر على نفسها، وهي استعارةٌ قديمة تدلُّ على الصحة والحياة والخلود. والاستعارة ظاهرة كذلك في وصف الملوك الثلاثة الذين تُقابِل معادنهم (الذهب والفضة والمعدن الخام) الحكمةَ والمظهر والسلطان، أو العقل والفتنة والقوة، أو المعرفة والشعور والإرادة، كما هي ظاهرة في العلاقة بين مملكة الحسيات (التي تُمثلها الحية الخضراء) وبين مملكة الحرية أو مملكة ما فوق المحسوس (التي تُمثلها الزنبقة).

ولكننا نُخطئ إذا تصوَّرنا أن بقية الصور التي تتتابع في كثرةٍ مُذهِلة يمكن أن تُحدِّد دلالاتها هذا التحديد، فلو فعلنا هذا لكنَّا كمَن يُحاول معرفة السر بالعقل والاستدلال، بينما الأمر فيه متروك للشعور والوجدان. ونخطئ كذلك لو حاولنا أن نُعطي بعض الجمل التي تجري مجرى الحكم دلالاتٍ ثابتة؛ فحين يسأل الملك: «أي شيء أروع من الذهب؟» فتُجيب الحية: «النور.» ثم يعود فيسألها: «وأي شيء أعذب من النور؟» فتُجيب: «الحديث.» أو حين يسألها العجوز: «علامَ صمَّمت؟» فتُجيبه قائلة: «على أن أُضحِّي بنفسي قبل أن يُضحَّى بي.» أو حين يقول العجوز ذو المصباح للفارس الجميل: «إن الحب لا يتسلط، ولكن يربِّي، وهذا أكثر.» سنجد أنفسنا في حيرة من هذه العبارات جميعًا، فلا ندري كيف نُفسِّر علاقتها بالحكاية في مجموعها. إن الحديث الذي تُشير إليه الحية هو هنا نوع من التفاهم والتجاوب بين السائل والمُجيب، ولون من الالتقاء بين من يتحدث ومن يستمع إليه.

[٧] راجع لكاتب السطور مقالًا من «الدهشة أصل الفلسفة»، نُشر في مجلة «المجلة»، أغسطس ١٩٦٣م.

إنه يصل إلى ذروته في الحب، وهذا يؤدي إلى التضحية والفداء، وتضحية الحية بنفسها هي التي تُتوِّج الحكاية، وتخلق روح التجانس التي ستُرفرِف على الجميع. وكذلك لا يخرج الضد إلا عن ضده، ولا تُولَد السعادة إلا من أعماق الشقاء.

مزيجٌ عجيب من جميل ونادر، ومُضحِك ومُدهِش، تُروى كلها في مستوًى واحد وعلى وتيرةٍ واحدة؛ فالضحك لا يُضحِكنا بالمعنى المألوف لنا في حياتنا اليومية، والمُدهِش لا يُثير دهشتنا، وكل ما هو جميل أو نادر فهو شيء نتوقَّعه سلفًا في عالم الأحلام. هنا ينطلق الخيال فيلعب في حرية وبراءة، وينثر صورةً سحرية وراء أخرى، خالصًا من قيود الواقع وقوانينه (وإن لم يخلص من قوانين الأفكار)، حتى يُشبِه أن يكون لحنًا موسيقيًّا أو تأليفًا غريبًا من يد رسَّامي الرموز والأحلام، هي إذن مملكة أحلام، وهي في الوقت نفسه صورةٌ عقليةٌ عالية لا تعليم فيها ولا عظات، بل لعبٌ خالص من كل هدف، يُحاول أن يربط الكائن المحدود بالعالم غير المحدود.

لقد نُسجت الحكاية من رموزٍ عاشت في ضمير الإنسانية من آلاف السنين، وردَّدتها الشعوب في أساطيرها وحكاياتها وخرافاتها وأشعارها وفنون سحرها؛ فالحية والنهر واللهب والذهب … إلخ، تنبع من هذا النبع الحي القديم، ولكن الحكاية تُحاول إلى جانب ذلك أن تُجيب على السؤال الخالد عن جوهر الإنسان ومصيره، وعن موقفه من هذا العالم وواجبه فيه. فالإنسان خالق الحضارة هو الكائن الوسط الذي يقف بين شاطئَين، ويعيش بين طرفَين، ويتأرجح بين لامُتناهيَين (كما عرف اليونان، وكما قال باسكال في عبارته المشهورة)؛ بين الهوَّة والقِمة، والحيوان والإله، والضعة والكمال. والحكمة كلها في إقامة الجسر الذي يربط بين شاطئَي نهر الحياة؛ بين الطبيعة والفن، والأرض والسماء، والليل والنهار، والواقع والمثال، ولكنه لن يُقيم هذا الجسر حتى يدفع الثمن من حياته ودمه، ولقد ضربت الحية له المثل الرائع الأليم، فعرفت «حين آن الأوان» كيف تُضحِّي بنفسها في سبيل غيرها، وتبني من جسدها تلك الدائرة المسحورة التي تضمُّ السعادة والتجانس والكمال.


هنداوي